
القِصَّةُ السِّرِّيَّة
لِبِنْتٍ دُرْزِيَّة
رِوَايَة
الحب المستحيل
فارس الشامي
THE IMPOSSIBLE LOVE

هذه القصة ملحمة عشق واقعية, خشي منها أكابر رجال السلطة والجهات النافذة فأُصدروا قرار سياسي بمنعها من النشر, وقد بُذلت جهود عظيمة لإخفائها وعدم رؤيتها النور, وقدّر الله أن تسرّبت وأصبحت الأن بين أيدينا, ونحن نقدمها لك كأيقونة, لعلك تساهم أنت في نشرها.

قصة حقيقية وقد تم استبدال أسماء ابطالها.

وهي القصة الأكثر انتشاراً في بلاد اميركا اللاتينية.

إهداء

إلى كل عاشقين خضّبا جباههما بدماء الحب المقدسة وضحيا لأجله

إلى كل معصم كسر قيد الذل.

إلى كل من رفض أن يستوطن الوهم والأسطورة عقله فتحرر منها

إلى كل من يقرأ هذه القصة.

من أحمد وسارة إليكم

المؤلف

فارس الشامي

-حين نحب تغدو السماء أقرب إلينا تلامس أيدينا قبابها أحياناً, هذا ما سمعته "سارة" يوماً. شبكت يداها فوق صدرها وكأنَّ بين أضلعها حلماً دافئاً تخشى أن يفتح باب القلب ويخرج منه, وتفتقت شفتاها الورديتان عن بسمة رقيقة كأنّه شعاع شمس فرَّ من بين غيوم داكنة أيام الشتاء, سارت بخيالها في الفضاء, من قال أنَّ الحب يملك أجنحة صدق فهو يجعلك تطير فوق السحاب وتبحر في السديم بلحظة.

تُقلّب "سارة" ذكرياتها منذ أن تعرفت إلى " أحمد " ذلك الفارس الذي اختطف قلبها ويأبى قلبها أن يفتك منه أسره, تحيا كل لحظة تمضيها معه أو بقربه أو حتى وهي ترقبه من بعيد إحساساً فريداً, وكأنَّ الزمن المقيّد بالحب يأبى أن ينصرف, بل يصطحب معه مشاعره وكلما استعادة الذاكرة اللحظة استعاد القلب معها الشعور فيها.

تبسمت وهي تذكر عندما صارحها بمشاعره وقال لها كلمة " أحبك" أحسّت بأنَّ الأرض توقفت عن الدوران, أنَّ حرارة الشمس كلها جمعت في هذه الحروف الثلاث, كادت أنّ تصرخ بحبه, أن تضمه وتغوص عميقاً في صدره, لكنَّ الحياء منعها, واكتفت ببسمة ونظرت إلى البحر, وهي تشتهي أن يعيدها مراراً لها, كانت لا تزال حلاوة الكلمة عالقة في مذاقها, من قال أنَّ للكلمات صوت فقط فقد أخطأ, لبعض الكلمات ذائقة أيضاً, ذائقة مميزة يصعب نسيانها.

"أنا محظوظة" تقول في نفسها لم يكن " أحمد " ذلك الشخص العادي أبداً, ولا يمكن أن تلتقي بمثله إلّا نادراً, شخص تتفجر الرجولة والشهامة من ثناياه, يجمع الحزم والحلم معاً ولسبب غريب فإنَّ كلَّ من حوله يشعر بالأمان ويعلم أنّه يستند إلى شخص يدافع وبقوة عن الحق أولاً وعمن يستجير به, وبرغم كلّ صلابته وحزمه التي تشعرك بأنَّك تخاطب قائداً خاض معامع الحروب وخرج منها مظفّراً, فإنَّك تجد لديه طيبة رهيبة وقلباً يرقص فرحاً عندما يسدي خدمة لإنسان أو يفرج كربة لسائل, وهو مرح وصاحب خفة ظل لا يعرفها إلّا من عاشره, يعرف دائماً كيف يزرع البسمة على وجوه الناس حوله, كما أنَّ فراسته بالناس أهم وأخطر ما لديه, إذ ترى في عينيه ذلك الرجل المجرب الحاذق الواثق بنفسه حد السماء, يعلم كيف يكتسب قلوب الناس وهو الذي يقول دوماً " احتاج 30 ثانية لأكسب قلب مُحدّثي" وقد اكتسب قلبي بأقل من ذلك بكثير, خبير بأصناف الناس وطرق التعامل معهم كما أنّه ماهر في التعامل بأدب واحتراف مع النساء.

أن تجدِ رجلاً يحتوي كل هذه الفروسية والشهامة, والقوة والرحمة, والذكاء والطيبة, أمر نادر حقاً.

تتنفس عميقاً تشعر بضربات قلبها تهزُّ جدار الصدر, لطالما حلمت مثل كلّ فتيات الأرض بثوب أبيض ليلة الزفاف, بباقة ورد ترميها لتظفر بها إحدى الصديقات بالخلف, بفارس على صهوة جواد مع ضوء القمر, يُفّري قيد وحدتها, يُبحر في غدران عينيها, يسكب لها الغزل بكأس من الشعر الجميل الذي لطالما أحبته, يعيد معها قصص الحب التي أكثر الرواة من سردها, فهل تكون بدل "قيس وليلى" أو "جميل وبثينة" أو "عروة وعفراء" قصة " أحمد وسارة".

ولماذا جُنَّ أولئك العشاق حتى سارت بقصصهم الرُكبان؟ هل لأنَّ عشيقة أي منهم لم تبادله زخم العشق وتكتوي معه بناره, بلا بل ربَّما أحبت ليلى قيساً أكثر من حُبه لها, وذاقت عفراء من اللوعة ما لم يذقه عروة, وغرقت بثينة في بحر الهيام ما لم يلامس شواطئه جميل, لكنَّ الحياء والعادات منعهنَّ أن يَبُحن بذلك, فبقينَ كملهمات لعشاق دوّنَ الشعر بوح مشاعر الرجال وكتم ما سواه. اذاً طالما أنَّ عشيقاتهن أحببنهن فلماذا سمي "مجنون ليلى" راودها هذا السؤال, هل لأنَّ الحب كان "عذرياً " انتفضت من هذه الفكرة, نعم سبب ذلك الجنون والألم أنَّ أياً من قيس أو عنتر أو سواهم لم يتزوجوا ممن أحبوا لذلك هاموا بحبهم حتى ملك العشق عليهم تلافيف الدماغ, ومازج حلو المشاعر مرارة البعد وانتصر واقع الفراق على وهم الوصال, فهل سيتكرر الأمر معها هي وأحمد؟

لقد بدأ قلبها يرتجف كالطير يقلّب بين يدي من يذبحه, حين يغدو أملاً يعادل حياة بأسرها فهذا الأمل لا ينبغي أن تفرّط به أبداً, بل يجدر بك أن تذلّل كلَّ السبل لتحقيقه حتى لو اسماه الناس مستحيل, وهنا تستحضر بذائقتها كلمات أحمد الذي يقول دوماً " المستحيل يأخذ وقتاً أطول فقط " فهو رجل لم يعرف المستحيل في حياته, كل ما فيه نبرات صوته, نظرات عينيه العميقة المستهينة بالصعاب, سرعته ودقته في الإجابة, محاكاته للظروف وتحديه للصعاب كل ذلك يقول أنّه رجل مجرب قد واجه التحديات وانتصر فهو يعلم كيف يقاتل وكيف ومتى ينتصر.

نعم لن تخسر ذلك الحلم أبداً, قامت على عَجَلٍ طلبت أحمد على الهاتف وسرعان ما أتى الرد "السلام عليكم " كانت نبرته شيء يوحي بالأمان لطالما شعرت أنَّ الكلمة الأولى التي يجب أن تقولها له عند الاتصال "حبيبي" لكنَّها انتبهت على الصوت يعيد للمرة الثانية "السلام عليكم" بصوت متقطع تجيب "وعليكم السلام".

-أحمد يجب أن نلتقي لأمر مهم.

-هل أنت بخير

-لا لست بخير بل هناك مشكلة كبيرة, لذا أريد أن اراك.

-هل صليتِ اليوم؟

وقع السؤال عليها كالصاعقة وقبل أن تجيب تابع أحمد, تذكّري أنّه لا توجد بالحياة مشاكل لا يمكن حلّها, ولو كانت المشاكل تحلُّ بالهروب لكانت الأرض اليوم كوكباً فارغاً, جميع المشاكل التي داخلنا ورائها أننا التزمنا بالصمت وقت الكلام, نلتقي بعد قليل إن شاء الله.

-سارة ما بك؟ تخاطب نفسها لطالما اعتزت بنفسها وبقدرتها على صياغة الكلام بدقة وبدلوماسيتها في التعامل مع الناس وهي الطالبة الجامعية وقد اكسبتها دراستها في علم النفس القدرة على معرفة طباع الآخرين والتعامل معهم باحتراف.

لكنَّها الأن تشعر بارتباك كبير, تختفي المفردات من جعبتها, تأتي الأفكار السوداء لتغزو مخيلتها, أتراهُ يقرر الانفصال عنها بعد أن تصارحه بالحقيقة؟ أتراهُ يبغضها لأنَّها خدعته ولم تخبره من أول الطريق؟ أتراهُ.. أتراهُ ... وتدور في فلك من الأفكار.

وحتى لو لم يحصل كلُّ هذا فكيف ستعالج هذه العقدة التي عمرها ألف عام؟ وقد حرمت بقسوتها قلوب أحبة كثر من بعضهم البعض وباعدت بين أجسادهم وأرواحهم, وكيف سيصل إليها ومصير كثير مما سبقوه كان القتل والايذاء؟ هل ستشهد دفن حلمها في مهده قبل أن يبصر النور؟

تحاول التفلّت من دوامة الأفكار المنهكة إلّا أنّها لا تستطيع فتسقط أسيرة بها, لا يحررها إلّا صوت أحمد مرحبا بها وقد وصل قبلها منتظراً إياها في سيارته.

استقلّت بجانبه سارا ببطء ثم ركن السيارة جانب البحر لفّهما صمت طويل كانت خلاله تستجمع قواها, وكان هو هادئ الملامح ويرقبها بعيون تقرأ الخبر دون البوح.

زفرت نفساً خرج بضيق من صدرها ثم قالت: أحمد هناك شيء ما يجب أن اصارحك به شيء ربما يحول دون زواجنا.

قال مبتسماً: مشاكل قبل الزواج على الأقل أجّلي المشاكل إلى ما بعده.

استجمعت كل ما بقي لديها قالت بنبرة حزينة: أحمد أنا لم أخبرك بأنّي درزية وأنت مسلم. مرت الثواني بطيئة جداً وثقيلة على جفنيها قبل أن تختلس نظرة لترى وقع الخبر عليه, بقي مبتسماً وكأنَّ اللون الأزرق غاص عميقاً في عينيه فازدادت بريقاً, هي تعلم سر هذه اللمعة في عينيه, لطالما كان يقود سيارته التي اسماها " غالية " ويحبها ويحدثها كأنّها رفيق له يقودها بسرعة ويخطط لشيء ما, تتفلت منه بعض الكلمات أحياناً وحين تراه استكمل بناء الخطة أو توصل إلى فكرة مميزة كانت تلمح تلك النظرة في عينيه منبئة أنَّ النصر آت.

سألها بهدوء: وهل الدروز مسلمون أم لا؟

لم تتوقع أبداً هذا السؤال, لطالما سمعت أخباراً من أهلها ومحيطها ومقولات تتناثر هنا وهناك أنَّ الدروز مسلمون, لكنّها لم تكلّف نفسها عناء البحث, أو تطالب بالدليل, إلّا أنّها ادركت هذه المرة أنّ سؤال أحمد سؤال العارف بالأمر, وأنّ وراء السؤال أمر مهم.

أحست بنبرته حنيناً وحناناً دفّاقاً, وادركت أنّه سيتبع السؤال بكلام دقيق ولا يليق بها وهي الجامعية المثقفة أن لا تعثر على الجواب.

قالت: بالتأكيد مسلمين.

قال: اذا فالله تعالى يقول (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) وهذا دليل على أنّه لا يحل للمسلم أن يتزوج مشركة وهو دليل أيضاً على أنّ زواج المسلمة من المسلم حلال, فطالما أنتم مسلمون كما قلتي, والله أحلَّ زواج المسلم من مسلمة, فلماذا تحرمينه؟ ومن الذي حرمه؟ وما الدليل؟ أيجرؤا عبد عاقل أن يحرّم ما أحلّ رب العباد.

قالت: لكنّنا طائفة من الإسلام, والطائفة تحرم بشريعتها زواج الدرزي بمسلم أو بمسيحي أو يهودي أو بأي دين آخر غير الدرزية؟

قال: إن كان الدروز طائفة من الإسلام فليس لهم شرع يخالف شرع الإسلام, فلا يجوز لهم أن يحلّوا حراماً او يحرّموا حلالاً, ثمَّ إنَّ كلّ الطوائف الإسلامية البضع وسبعين التي تؤمن بالقرآن وتعمل به تجيز الزواج من المسلمين حيث أنَّ المشرع هو الله تعالى, حيث أمر الله بزواج المسلم من مسلمة, ولم ينهَ سوى عن زواج المسلم من كافرة.

فإن كان الدروز طائفة مسلمة كما قلتي فجميع الطوائف المسلمة على الاطلاق تجيز الزواج من المسلمين.

قالت: لكننا طائفة مسلمة وهذا من اجتهادات مذهبنا.

قال: حسناً أنا سقت لك الدليل من القرآن الكريم ومن المنطق أيضاً, أين دليلك أنت من القرآن أو حتى من كتب الحكمة؟

قالت: لا ادرِ سمعت الناس حولي ووعيت على الدنيا وهم هكذا يتكلمون.

قال: وهل يستوي وأنتِ الجامعية المثقفة أن تقولي سمعت الناس من حولي يقولون؟

هل تتلقي علم النفس من الجامعة أم من الناس حولك بالمجتمع؟

قالت: من الجامعة.

قال: وهل إذا مرضتي تزوري الطبيب أم تذهبي للمشايخ لديكم؟

قالت: بل اذهب للطبيب.

قال: إنك تذهبين لمن لديه علم في أمور الدنيا فكيف بأمر آخرتك, اذاً فيشترط بالعلم أن يؤخذ من اهله وبالدليل أيضاً لا بالمشاعر وأخبار العوام, ونحن المسلمين دليلنا كتاب القرآن وسنة النبي.

لنسأل أين دليلك الآن؟

إما من تعاليم انبياء الدروز, وإما من مضمون رسائل الحكمة الدرزية.

أما تعاليم أنبياء الدروز المسمين الحدود الخمسة فلم تروِ كتب التاريخ شيئاً عنهم ولا عن افعالهم على الإطلاق, ولم يروَ أي شيء يتعلق بحياتهم ,زواجهم , معاملاتهم , عباداتهم قضائهم, غزواتهم, التي مفترض أن يقتدي الناس بها لو وجدت, ولم ينقل أحد عنهم الأفعال والأقوال, فهم مجهولون وإن كان لديك شيء من آثارهم او سنتهم فاخبريني بها؟

وأما رسائل الحكمة الدرزية فلا يوجد بها رسالة تنص على منع زواج الدرزية من مسلم.
نزلت هذه الكلمات برداً وسلاماً على سارة.
قالت: وما ادراك ماذا يوجد داخل كتب الحكمة؟
قال: لأني قرأتها بعناية, وتفحصت ما فيها بعقل ودراية, وقد اجتهدت في الحصول عليها ولم يكن الأمر بهذه الصعوبة التي حاول البعض ايهامنا بها, بل إنَّ كلَّ ساعٍ لها يستطيع الحصول عليها, وإن كان لك دليل من الكتب فأحضريه هذه الكتب بينَ أيدينا, يمد يده إلى الخلف ويضع كتاب الحكمة بين يديها, باندهاش شديد يبدو على المحيا تخاطب نفسها هو فعلاً قارىء لهذه الكتب متبصراً بها عالماً بأحكامها ودقائقها, هذا ما جعل كلامه بهذه الدقة والانسيابية, وجعل عباراته مترادفة قوية, وما حداها أن تحس بأنه ينطق بالحق وان معه الدليل.

ولكن لماذا يا ترى؟ لماذا بذل كلَّ هذا الجهد والوقت لقرأتها والبحث فيها, ولماذا هي معه في السيارة؟

في خضم دهشتها وعميق افكارها يتابع صوت أحمد الدافىء مسترسلاً, لا شك أنّك تسألين نفسك كيف عرفت هذا؟

بداية لا اريد أن أرى هذه النظرة المنكسرة في عينيكِ, أو يدور في خلدك سؤال أو خاطرة دون أن تبوحي بها. عندما أعلن الحب الرباط المقدس بين قلبينا كان السبب أنّي رأيت روحاً عانقت روحي وائتلفت مع ذاتي, فقررت المُضي قُدماً للنهاية, والنهاية بقاموسي هي أن تكوني لي وملكي, وطبعاً لم يكن من الصعب ابداً معرفة مذهبك نظراً لأنَّ العائلات الدرزية معروفة كما أنَّ البيئة ومكان السكن والكلام كلّه يوضح بشدة طائفة أي شخص فسألت عنك في الجامعة وعرفت أنّك درزية وهذا ما حملني ومنذ أشهر على البحث مطولاً وبدقة في كتب الدروز جميعاً وخاصة كتب الحكمة.

تأخذ سارة الكتاب تقلب صفحاته بيديها, هي لم تكن قرأته يوماً ولا رأت احداً يقرأه, لقد شعرت بالخجل الشديد فهي لم ترَ حتى اليوم كتاب دينها فاستحييت من هذا الجهل بالدين.

قالت بتردد: وماذا لو كان هذا اجتهاد من علماء المذهب الدرزي؟

قال: ممتاز لننتقل لفرضية الاجتهاد, إنَّ القاعدة تقول (لا اجتهاد في مورد النص) وهذا معناه أنَّ الاجتهاد يُعمل في حال عدم وجود نص أو حكم شرعي, وينعدم بوجوده, لأنّه حين وجود النص يكون الله تعالى هو الذي أحلَّ أو حرّم, ولا عمل عندئذ للبشر بالتشريع والاجتهاد.

فهل يمكن القول بأي عصر أنَّ القتل أو السرقة حلال بالتأكيد لا؟ لماذا؟ لأنَّ الله تعالى حرمهما بنص صريح.

كذلك الزواج أحلّه الله تعالى من مسلمة بنص صريح, كما أنّه حرّمه من الكافرة بنص صريح.

يتابع أحمد:

سارة أنا احببتك لأنّك روحاً لاقت روحي, ارتقت بها حد الغمام , فَتحت عيناي على حلم أن أكون يوما ما أباً وحبيباً وزوجاً, أحببت صدقك نبراتك التي تختلج على شفاهك وتتراقص كالفراشات من السعادة كلما التقينا, أحببت حيائك الذي ينتشر عبقه كعطر الياسمين فيرسم فوق ورود خديك لون الجوري الأحمر.

كم يا ترى من القلوب قد تمزقت على هذا الصنم المعبود المدجج بالجهل والعادات والأساطير والخرافات, كم من العيون بكت, كم دُمّر من أحلام العشاق الوردية أمام إعصار الجهل والتجهيل, واسراراً بقيت لغزاً دون جواب, وأقفالاً لم يفتحها أي مفتاح وغرفاً سوداء لم يتسلل لها النور.

لطالما احترمت عادات الدروز من شجاعة وكرم وأخلاق وسواها, ولكن جدير بطائفة تقدس العقل وتعتبره رمزاً لأنبيائها أن تُعمِلَ العقل أيضاً في الصواب والزلل, والأسباب والعلل, فمنذ سنين وأنا اسأل هذا السؤال وهو سؤال عقلي بحت, إن كان الدروز مسلمين كما يقولون فلماذا لا يستطيعوا الزواج من مسلمين؟

وإن كان الدروز غير مسلمين فلماذا يقولون عن أنفسهم مسلمين أليس أول قاعدة بالمذهب هي (صدق اللسان)؟

وأين الدليل على منع زواج الدرزي أو الدرزية من المسلم في كتبهم؟
شارفت الشمس على الغروب, كانت تودع معشوقتها الأرض بآخر خيوط من إشعاعها منكسراً حالماً بالدفء منتظراً أن تضمه الأرض مجدداً.

يخيّم الصمت على العاشقين كغيمة أظلّتهم في لجّة أمواج التحديات, وفي طريق العودة القصير حيث الزمن يجري سريعاً عند لقاء المحبين, كانت أسئلة أحمد تدور وتدور في رأس سارة, أن تدافع عن شيء لا تعرفه هو عين الجهالة, تخاطب نفسها, أن تحيا عمراً تؤمن بدين لم تقرأ حرفاً عنه, أن تنتسب لجماعة وأن تقدس كتاب لم تفتح يوماً دفتاه, أن تؤمن بانبياء خمس حتى لا تعرف أسمائهم ولم تسمع شيء عنهم, تكاد تجن هذا كلّه لا يليق بعاقل.

-لم تفارق البسمة إطلاقاً وجه أحمد, هي عبادة جبر الخواطر التي يتقنها, هو تحفيز من حوله وزرع الأمل والياسمين في صحراء اليأس القاحلة, لقد توقعت كلَّ شيء إلّا الذي حصل ,توقعت أن تنتهي علاقتهما, أن يلومها, أن يتجاهلها لكن أن يناقشها بصلب عقيدتها كان الأبعد عن خيالها.

-هل من المناسب أن تبوح له أنها تترك جزءاً من روحها في سيارته كلما افترقا, هل تخبره أنَّ عبق عطره يستمر معها أياماً وأنَّ كلماته تحفر عميقا وتستوطن بين أضلُعِها, هل تبوح له كم تشتهي أن يتزوجا وتصبح أميرته ويغدو فارسها وقائدها, ستكتفي ببسمة حياء وبنظرة تبوح بشوق السنين وعبق الحنين وشبق الكلام وحلم الوصال وهي تعلم أنّه يجيد لغة العيون.

ودّعته, يَدُها على مقبض الباب قال سارة: التفت اليه تذكري " المستحيل يأخذ وقتاً أطول فقط " أنت لي أعدك بذلك, هذه المرة هي من تفلتت منها كلمة أحبك, وسأبقى أحبك.

-غادرت "غالية" بعد ان أوصلت سارة, رويداً رويداً تغيب عن الرؤية لكن عين أحمد تختلس نظرة إلى المرآة ليرى انعكاس ضوء القمر برّاقاً على احداق سارة يراقص دمعها القمر.

بخطوات متثاقلة دخلت منزلها, يأتيها صوت أمها رقيقاً يحمل في طياته الاستفهام الذي تعرفه جيداً, حبيبتي سارة أين كنت؟ فهي الابنة الوحيدة المدللة لدى العائلة أجمع وخاصة والديها.

الأم: حبيبتي ما بك كأنّك كنت تبكين؟

قالت: مرهقة فقط وأريد أن انام.

الأم: أنا صديقتك وموضع سرك ولست أمك فقط تذكري دوماً عندما تحتاجين لتبوحي بشيء فأنا كلي لك.

بابتسامة تنم عن الرضا تنسحب سارة باتجاه سريرها.

تحتضن وسادتها تعيد شريط الذكريات أمام ناظريها وتغرق في التساؤلات, كلُّ هذا الحب الذي يجتاح صدرها كالإعصار, كلُّ هذه الورود التي تفتحت في بساتين الفؤاد, تيارات الأحاسيس التي ما عرفتها سابقاً, كلُّ هذه تتوقف على إيجاد أجوبة للاسئلة التي طرحها عليها أحمد, ولكن كيف يا ترى تخاطب سارة نفسها, فجأة تلمع فكرة برأسها لقد أخبرها أحمد أنَّه أمضى الشهور الطوال وهو يقرأ العقيدة ويبحث في دقائقها ويفتش عمّا خفي من مجاهيلها, إذا فلا بد لها من أن تستعين به ويضعا خطة لفهم الرموز.

وفي إندفاعة سهم غادر الوتر تنطلق سارة وأحمد يمضيان الأيام الطوال في النقاشات وبين رفوف المكتبات وصفحات المجلدات وتراجم المستشرقين وخفايا الباحثين وكتابات المختصين ينتقلون من صفحات التاريخ ودراسة شخصية الحاكم بأمر الله الفاطمي, إلى تراجم الحدود الخمسة, إلى دراسة الإسماعيلية مذهب الامام حمزة بن علي وتأثيرها على العقيدة الدرزية التي انبثقت منها, وكيف أن الدرزية أخذت اغلب تعاليمها منها, إلى قراءة رسائل الحكمة وشروحاتها, وصولاً إلى دراسة الدور السياسي والتاريخي للدولة العبيدية وما رافق ظهور الحاكم وحياته ومقتله من احداث, إلى البحث في الكتب التي كتبت عن العقيدة الدرزية وشرحتها وأهم ما وقع بين أيديهم كتاب مهم جداً مجهول المؤلف اسمه **" غير المعروف عن بني معروف "** فقد كان بمثابة سفينة النجاة لكل باحث عن اسرار العقيدة الدرزية.

أن تنهل العلم من الكتب شيء وأن تأخذه من أهل العلم شيء أخر, ولأنَّ المجهول عُرضة لكلّ إفتراض, ولأنَّ ما قرأته بين دفات الكتب شيء كبير وخطير ويولد مفهوماً للأمر بالتقية التي تعتمده العقيدة الدرزية, زاد الشك في صدر سارة, وحيث أنَّ رائدها الحق الذي ما ضلَّ من سعى اليه بصدق, وفي خضم تفكر عميق يتفتق عقل سارة عن فكرة سديدة رائعة كأنها عثرت على كنز تقول لقد بحثت طويلاً في سطور المؤلفات, ويجب أن انتقل الى البحث في صدور المؤلفين, ومن سطور الكاتبين الى صدور العارفين تلمع برأسها الفكرة لا بد ان أزور" المجلس " هو دار عباداتنا, وأنا من حقي كما كلّ أبناء الطائفة بل من واجبنا وليس حقنا فقط, أن ندخل دورعبادتنا لنتعلّم ديننا ونغوص في عقيدتنا ونفهم سرَّ وجودنا, غداً الخميس وسيكون هناك "سهرة للمشايخ" لتعلّم الحكمة ودراستها وعلي أن أكون هناك لأتعلم.

ابتسمت كمن وجد ضآلته بعد فراق سنين, لقد بدأت بالطريق الصحيح, وستخرج من دائرة الجهل, مؤمنة أنّ دين لا علم فيه دين لا خير فيه.

-في اليوم التالي تقف سارة أمام المرآة التي لطالما كلّمتها وسألتها عن جمالها قبل لقاء أحمد, ترتدي ثوبها الأسود الطويل الذي يُحاكي جمال قدها الممشوق, تضع "الطرحة" على رأسها فتنسدل كزهرة الياسمين على عامود من العاج, تطلب إذن والدها بأنّها تريد أن تذهب " لسهرة المشايخ " يتبادل الأب والأم نظرات تعجب تُفصح من دون أن تتكلم.

يسأل أخوها في ذهول: نعم؟ تعيد سارة أريد أن اذهب " لسهرة المشايخ " وأنت ستوصلني بعد إذن أبي وأمي, يهزُّ الوالد رأسه أن لا مانع. تعاين الأم لباس ابنتها المحشوم الذي يناسب المكان, ويمنع أن تمتد الألسنة بالسوء تجاهها, تدرك بفطرتها الأنثوية أنَّ شيئاً ما تخفيه سارة, وأنَّ وراء هذا الشيء ربما شاب.

تصعد بجوار أخيها في السيارة يمازحها "ستصبحين شيخة " ثم يطلق ضحكة عفوية صاخبة, تبتسم سارة, وتسأله :ماذا تعرف عن ديننا؟

الأخ: بضحكة أعرف أن أكل وأشرب وأنام.

سارة: أنت شاب جامعي كلمني بمنطق.

الأخ: مثل كل أبناء الطائفة لا أعرف شيء غداً عندما أصل للأربعين عاماً ابدء بالبحث.
سارة: وهل ضامن أن تحيا للأربعين؟ وهل مصير الذين يموتون قبل الأربعين الجحيم لأن المشايخ لم يأذنوا أن يتعرفوا لدينهم قبلها, والله لم يأذن أن يحيا ليبلغها؟
-تصل للمجلس وعند الباب تستقبلها زوجة " سائس المجلس " أهلاً سارة كيف حالك وكيف والدتك؟

سارة: بخير شكراً للسؤال.

زوجة سائس المجلس مبتسمة: هل من خدمة اسديها لكِ؟

سارة: جئت لأسهر معكم ليلة الخميس, واستمع لشرحكم عن الحكمة, واتعلم منكم ديني.

تتغير ملامح زوجة السائس, يبدو أنَّ الكلام نزل موقعاً ثقيلاً من نفسها, تبدو عليها ملامح الاضطراب, فسارة صاحبة شخصية قوية, وهي ابنة عائلة متعلمة ومرموقة.

زوجة سائس المجلس: اهلاً بك حبيبتي لكنّك تعلمين أننا لا نسمح بالدخول إلّا لمن " استلم دينه "

سارة متفاجئة: ولكنّي أتيت لأتعرّف إلى ديني بداية, كيف استلم ديني والتزم به وانضبط بأحكامه وأحلَّ حلاله وأحرَّم حرامه وأنا لا اعرفه؟

أتعرَّف إلى ديني الذي هو حقي كوني ولدت على الدرزية ثم بعد ذلك أقرر إن كنت استطيع الاستمرار والالتزام فاستلمه, هذا هو المنطق والعقل يقضي بذلك.

زوجة سائس المجلس: هذه عاداتنا وتلك قوانينا وشرعنا.
سارة: هل أنا درزية أم لا؟

الشيخة: نعم درزية.

سارة: اذاً طالما أنا درزية, وهذا دار عبادة الدروز ومكان تعليمهم, كيف تمنعون الناس من الدخول إليه للتعرف لدينهم, أريد أن اعرف ربي وانبيائه وحدوده حتى دون أن أكون شيخة, ماذا أقول لأولادي غداً اذا سألوني من نحن؟ ماذا أقول لمن يسألني من الناس؟

أَيُعقل أنَّ مدرسة تطلب من طالب أن يكون استاذاً بها قبل أن يدخل المدرسة ويتعلم ويقرأ الكتاب ويأخذ منهاجه التعليمي؟

أو تطلب منه الاختصاص كما تطلبين أن أكون شيخة, قبل أن يأخذ العلم لهذا الاختصاص.

ثم كم من الأشخاص دخلوا واستلموا دينهم عن جهل بالدين ولما عرفوه تركوه ونزعوا عنهم الزي؟ أليس مَردُّ ذلك إلى جهلهم به وبأحكامه وشروطه قبل الدخول إليه, وردهم عن الباب كما تفعلين أنت معي الآن.

ثم من قال إنَّ الدين فقط هي هذه الأسرار التي تحرصون على اخفائها بكل ما أوتيتم من قوة, ألا يوجد في الدين معاملات واخلاق وقيم وأحوال شخصية وكثير من الأمور الدنيوية يمكن تعلمها بغض النظر عن العبادات والعقائد التي تحرصون على اخفائها حتى عنّا.

تُصاب زوجة السائس بإحراج شديد لقد تعودت عبر سنين أن ترد المريدين عن باب المجلس لكنّها لم تسمع يوماً مثل هذا الكلام, ثم إنَّ كلام سارة منطقي ومقنع ولا حجة لها بالرد عليها.

تتغير ملامح الشيخة ويبدو عليها الغضب خاصة وأنَّ الكلام يقع على مسامع الناس حولها.

لكنَّ سارة تتابع: ثم ما هو "استلام الدين" الذي تطلبيه مني, هو قطعة القماش هذه, أهكذا يصبح الانسان متديناً أو "جاهلاً", حسناً أنا ارتدي ثوباً اسوداً طويلاً مثلك تماماً وأضع طرحة بيضاء على رأسي مثلك ايضاً, فماذا يعني استلام الدين؟

تزداد حيرة زوجة سائس المجلس ولا جواب, تُردف سارة: ثم أين ورد في رسائل الحكمة أنَّ العلم لا يتلقاه إلّا من يلبس الثوب دُليني على الرسالة, وما علاقة علم العقول والقلوب بثوب الجسد, هل بمجرد ارتدائك ثوب طبيبة تصبحين طبيبة؟

اذاً لا علاقة للثوب لا بالعلم ولا بالتوصيف الديني أيضاً.
زوجة سائس المجلس: هذا الزي الذي تتكلمين عنه هو زي ديننا.

سارة: ألا تَريَن أنَّ قُرانا مليئة بمن يرتدي زي الدروز ومنهم من غير اديان, ألم تقرأي أنّه زي شعبي عمره مئة عام فقط ولا علاقة له بالدين, بل هو زي كان يساعد الرجال سابقاً للعمل بالحقول كونه واسع فضفاض, وساتراً للنساء كما كان عليه العهد سابقاً, لأجل ذلك ترين المسلمين والنصارى أيضاً في قُرانا كانوا يرتدون هذه الثياب.

زوجة سائس المجلس كأنها سقطت من علو, لا تنبس ببنة شفة, وقد اضطربت ولم تجد الأجوبة سبيلاً إليها, وهي التي لطالما اعتزّت أنّها تُعلّم بنات جلدتها دينهم, وكأنّها للمرة الأولى تتلقى الحقيقة على منابر النور.

إلّا أنَّ حظ النفس كان أكبر فعادت للمكابرة مجدداً, تحاول أن تنهي هذا التمرد على العادات المغلّفة بالجهل تحت اسم تقديس العقل, على آلهة مصنوعة من تمر, تطرد سارة الطالبة الجامعية المثقفة التي اسكتتها بقوة منطقها ولم تجد جواباً إلّا أن تقول:

مع السلامة سارة سلمي على والدتك وتغلق الباب.

الأُسرة مجتمعة تدخل سارة بعد إغلاق باب المعبد بوجهها, والأشخاص الذين يُفترض أنّهم معلمون رفضوا إعطائها العلم, والكتاب الذي مفترض أنّه كتابها منعت من فتحه وقراءة حروفه, والبيت المفترض أنّه بيت لكل درزي أُرتجت أقفاله في وجهها, وعلاوة على ذلك فقد التقت بأناس نصّبوا أنفسهم وسطاء بين الله تعالى وعباده, وأنّهم ممر حصري للدين والرحمة, وأعلنوا أنَّ صراط الجنة والنار يمرُّ عبر أيديهم.

فلم يبقَ لها إلّا أن تُكلّم والدها الطبيب المثقف والمحاور البارع وصاحب الرأي الرشيد والقول السديد الذي يقبل الحق وتَسألهُ عن دينها.

الأب: ماذا حصل حتى اتيت بسرعة ولماذا أنتِ غاضبة؟

قالت: المدرسة ترفض استقبال الطلاب للتعلم, وتطلب منهم التخصص قبل أن يدخلوها اصلاً, وقبل أن يتعلموا.

الأب: هل طردوك؟

قالت: أَسمعتَ أنَّ مسلماً طُرد عن باب مسجد يوماً, أو أنَّ احداً سأله من أنت؟ بل أكثر أسمعت أنَّ احداً طُرد عن باب مسجد ولو كان كافراً, ألا يرحب به المسلمون ويحتفون به ويعلّمونه ويدعونه إلى دينهم بفخر واعتزاز, ويجيبونه على اسئلته ويظهرون شعائر دينهم بل يصدعون بها في المكبرات وعبر التلفاز, ٍأسمعت أنَّ مسجداً يشترط لدخوله أن يكون الناس مشايخ, وأن يرتدوا لباساً معيناً بدونه يمنعون من الدخول.

الأب: ما هذا الكلام يا سارة أنت تعلمين أنَّ لنا عادات مقررة.
قالت: وهل هذه العادات هي عبادات مستقاة من الدين أم طقوس وضعها اشخاص وهي تخالف الدين, ثمَّ من هم هؤلاء الذين نصَّبوا أنفسهم ظل الله على الأرض يمنحون الرحمة ويعطون الدين ويدخلون الجنة ويزجون في النار ويصنفون عقول الناس جاهلة وعالمة ماذا ابقوا لله تعالى؟

الأب: يتمتم مندهشاً لا يجد جواب.

سارة: أنت طبيب مشهور ورجل مثقف أمضيت عمرك بين دفات الكتب ورفوف المكتبات والجامعات والمحاضرات أخبرني ماذا تعرف عن ديننا؟

ينزل السؤال كالصاعقة عليه ينظر بعيني زوجته كأنّه يطلب إليها التدخل منعاً لإحراجه الأم أشد قلقاً فهي تعلم أنَّ هناك شيء ما في صدر ابنتها لكنَّها لا تبوح به كالعادة.

الأب: ابنتي الحبيبة الدروز موجودون منذ بدء التاريخ, يعبدون الله ويوحدونه, ويقيمون الفروض الإسلامية, فهم مسلمون لكن لديهم طقوسهم الخاصة ببعض الأمور, أي اجتهادات معينة, وهم لذلك أشرف الأمم وخير من داس الأرض بقدم.

قالت: رائع دين موجود منذ بدء التاريخ, دين كامل له رسله وانبيائه وكتبه, ومع هذا لم يذكرعنه أحد طوال التاريخ حرفاً, ولا يُعرف أسماء انبيائهم ولا كتبهم ولا اثارهم ولا سنتهم ولا ما قدموا للبشرية, ولم يسمع أحد عنهم أو منهم, وما ذُكروا إلّا منذ ألف عام فقط بعهد الحاكم الفاطمي في مصر وأركان الدعوة لألوهيته ومنهم الأمام حمزة بن علي.

أبي تقول إنّنا نعبد الله, لكنّي لم أركَ يوماً تعبده كذلك المشايخ, أخبرني كيف هي عبادتنا ماذا نقول في صلاتنا؟ ما هي اركان ديننا؟ شروطه واجباته مستحباته محرماته؟ ألا ترى أنَّ كلَّ الأديان حتى الوثنية منها لها طقوس معينة تعبّر من خلالها عمّا تعتقده, إلّا نحن كيف هي عبادتنا ونحن نمضي أعمارنا طعام وشراب ولهو؟

ثم تُخبرني أنَّ الدروز مسلمون, هل أنت حقاً مقتنع بهذا أم تمارس التقية معي كما فعلت زوجة سائس المجلس.

مسلمون وقد أسقطوا الصلاة, وسيدنا سلمان الفارسي نفسه كان يصلي, أتعتقد أنّي يا أبي أو أنت أو سائس المجلس أفضل من سلمان الفارسي؟

مسلمون ولا يقرّون الزكاة, وهي حق الفقير من أموال الله التي أعطاها للغني, وليست من شروط دينهم ولا ركناً لديهم وقد ربط الله الصلاة بالزكاة في مواضع كثيرة.

مسلمون ولم نرَ يوماً درزياً يحج بيت الله الحرام في مكة الذي بناه وكتب على الناس زيارته.

مسلمون ونراهم يأكلون ويشربون في شهر رمضان حيث كل مسلمي الدنيا تصوم حتى غروب الشمس.

مسلمون وهم يرفضون بناء المساجد التي هي بيوت الله, واستبدلوها بمجالس خاصة لفئة صغيرة منهم لا تتجاوز الواحد في المئة

مسلمون وهم يقولون أنَّ هناك نبي اسمه حمزة بن علي ومعه أربعة انبياء آخرين أتوا بعد النبي محمد, والله تعالى يقول إنَّ محمد أخر الأنبياء ولا نبي بعده.

مسلمون وهم ينكرون كل شرائع الإسلام واركانه وسنن نبيه, ولهم قوانينهم في الإرث والوصية والتركة وسواها من الأحوال الشخصية التي لا تتفق مع احكام الإسلام.

-تتوقف قليلاً, تستجمع شجاعتها, تلتقط أنفاسها تتغير نبرتها, ثم تقول مسلمون يا أبي وهم يحرّمون الزواج من مسلمين, تلتفت إلى والدتها لترصد نظرة شاردة من عينيها تُبدي ما تكتم من هواجسها وكأنّها كشفت عن مكنون صدرها التي حرصت على ابقائه بعيداً عن الناس, أو باحت بسرٍ دفين, تلمع عيناها بشدة تلاحظ أنَّ أمها بدأ القلق يعتريها, لكن لا بد من الاستمرار, فهي تعلم أنَّ اقصر الطرق لتحقيق الأهداف هي المواجهة.

أبي تعلمت أنَّ ما تهرب منه دون أن تقاومه لا يلبث أن يطاردك, أنتَ بالفِرار لا تُلغي المعركة أنت فقط تغير ساحتها, تنتقل المعركة بين ساحة وأخرى, الظلمة تسود في أي مكان لا يوجد فيه نور, تعيش الوهم, والوهم مريح للضمير, عندما تقول أنَّك تجهل فأنت بكل بساطة تَكفُّ عن المحاولة, لكنَّ اليأس الموت, حينما يستوطنك فأنت ببساطة تغير هويتك, دون أن تعرف تدخل القبر برجليك وتهيل عليك التراب.

أحسَّت أنها أنارت شمساً في ظلام عمره ألف عام, أزاحت الغبار عن كنز دفين قد غاص بأعماق الأرض, ثم تتابع أليست الدرزية التي تتزوج مسلم تكون قد "شرّعت" وتنبذ وتطرد وتحرم من دخول مجالسهم, وتقع الألسن في عرض والدتها, وتجلب العار لأهلها كأنّها فعلت كبيرة؟

الأب بكلمات متلعثمة: نعم نحن مسلمين ولكن لا نتزوج المسلمين.

ينتبه وكأنّه تلفظ بكلمات لا قيمة لها, وظهر أمام ابنته في النقاش كمن يدافع عمّا يجهل ويتكلم بدون دليل, وهو الذي لطالما أبهر الناس بحسن كلامه وعدالة منطقه.

قالت: أبي ألا ترى أنَّ قول الدروز أنّهم" أَشرف الأمم وخير من داس الأرض بقدم " مشابه لقول اليهود أنّهم " شعب الله المختار وخير من داس الأرض بقدم ", وها هم قد غضب الله عليهم ولعنهم, وهم شرار خلق الله المفسدون في الأرض.

ويشابه قول المجوس عبّاد النار, أنّهم "ظِلُّ الله على الأرض, وأنّهم خير الأمم " وقد أطفأ الله نارهم بعد قرون عدة, وكسر أكاسرتهم, وهدم دولتهم, وسيق ملوكهم الساسانيين أسرى اذلاء.

ألم يقل أبليس" أنا خير منه " مستكبراً متطاولاً على الناس, فلعنه الله وطرده من نعيمه وأبعده عن رحمته.

الأب: حبيبتي سارة أرجو أن نتوقف الآن عن النقاش, واعترف أنّي أشعر بالحرج بعد كلّ هذه السنين أرى نفسي لا اعلم ادنى معلومة عن ديني, لكنّي أعدك أن لا تبقى هذه الهواجس لديك ولدي أيضاً, لذلك سأصطحبك إلى الشيخ أمين أحد كبار المشايخ الأجلاء وأفقه رجل في هذه الطائفة, وهو رجل متفهم, وتستطيعي أن تعرضي عليه كلَّ اسئلتك.

قالت: أبي لطالما كنت فخورة بك, ويسرّني أن ارافقك للذهاب إلى الشيخ الذي قلت عنه عالم دين مختص ولكن لدي طلب.

الأب: طلباتك كلها تُجاب المهم أن تعودي إلى رشدك.

قالت: أريد أن يرافقنا زميلي في الجامعة.

الوالد والوالدة يتبادلان نظرات التعجب, لقد تحوّل شك الأم إلى يقين, يا ويلتي هذا ما كانت تخشاه أن تكون سارة قد أحبت شاباً من خارج الطائفة إنّه العار إنّه الدمار, ابتلعت الأم أفكارها مع غصتها.

الأب: ومن هذا الشاب؟

قالت: هو شاب مثقف مهتم جداً بعقيدة الدروز ومطلع على دقائقها, كما أنّه قدم لي يد العون فيما أقوم به من أبحاث.

الأب: إن كان مهتماً بالعقيدة وسيساهم في إيضاح ما خفي منها وإثراء النقاش, وترغبين في اصطحابه فلا بأس طالما هو اختيارك, كما أنّي اريد أن اتعرف إلى اصدقائك في الجامعة وأصحاب التأثير عليك.

بابتسامة رضى تُقبّل سارة والديها, تصبحان على خير.

-في فراشها المليء بالورد والدموع تقلّب سارة صفحات ذاكرتها تنتشل من مكان عميق فيها صورها مع أحمد تتزاحم تلك الصور في مخيلتها, كأنَّ للصور أرواح تأبى أن تغادر مخيلة المحبوب, هنا صاغ لها من لؤلؤ كلماته قصيدة عشق من زبرجد وألبسها إيّاها قلادة شوق وشبق فوق جيدها الماسي, لطالما أحب أحمد الشعر وكان رائده بامتياز, لا تزال حروف تلك القصيدة محفورة في أعماق صدرها كقطعة من رخام فوق مشهد تاريخي تقول:

صباحُ الحبيبةِ فجرُ الحنين..

لأروعِ أسطورةِ عاشقين..

أراكِ فأذكرُ نرجسةً..

وغصنٌ تهدّلَ بالياسمين ...

وقمراً تلالا بخفرِ الجبين ...

ولحناً عريقاً عميقاً حزين ...

سلامٌ إليكِ...سلامٌ عليكِ....

سلامٌ من الروح للرائعين ...

هنا قال لها كلمة "أحبك" للمرة الأولى فغدت الشمس رماداً, هنا جلب لها رائحة من عطر الغاردينيا التي يفوح عبقها فوق أزرار ورود خديها, هنا ضحكوا, هنا سهروا, هنا مشوا فوق رمال البحر يخططان لمستقبلهما ويختاران أسماء اولادهما.

إنها الواحدة فجراً لكنّ الشوق لن ينتظر للصباح حتى تخبره بالبشارة, يرن الهاتف سريعاً يجيب:

قال: جميل صوتك آخر الليل يضفي للقمر رونقاً, وللسهر معنى آخر.

قالت مبتسمة من كلامه: لدي لك بشارة وطبعاً استحق عليها هدية.

قال: طبعاً الهدف الهدية .... يضحكان ... لكِ مني أروع هدية.. هاتِ ما عندك يا جُهينة.

قالت: "ممازحة بغيرة " ومن هذه جهينة؟

قال ضاحكاً: هو مثل ليس إلّا.

هات ما عندك يا اميرتي.

قالت: ستلتقي بوالدي

قال: خبر رائع

قالت: وأمي أيضاً

قال: وحماتي ضاحكاً

قالت: والشيخ أمين

قال: بكل سرور ولكن من الشيخ أمين؟

قالت: بحسب توصيف والدي إنّه أعلم الناس بالعقيدة ومسالكها الروحية, وإنّه بحر من علوم الشريعة الدرزية, وإنّ لديه جواب لكل سؤال حولها.

قال: هذا عمل عظيم لطالما وددت أن أجد ولو شخص أناقشه بتفاصيل العقيدة واسرارها وخفاياها.

لكن ماذا تخططين أيتها الداهية؟

قالت ضاحكة أولاً: اودُّ أن تتعرف إلى أسرتي بداية ويتعرفوا إليك واخترت لذلك نقاش اكاديمي حيث تبدع بانتقاء الألفاظ وتقديم البراهين, ويتعرفوا إلى الشاب الذي يمتلك القلوب.

وثانياً: إمّا أن يقنعنا الشيخ أنَّ الدروز مسلمون, وعندها لا عذر لهم برفض زواجنا وقد قال كبير مشايخهم أنَّ الدروز مسلمون وأنت مسلم.

وإما تكون وجهة النظر الأخرى ويقول أنَّ الدروز غير مسلمين وعندها سيعمد إلى هدم نظرية منذ الف عام وهم يروجون لها, وعندها عليك باجتراح الحل أيها العبقري لاستمرار علاقتنا وزواجنا.

قال: الحل موجود, والعزم معقود, إن شاء الله.

تمرُّ الأيام سراعاً, ووسط عالم الحب الخاص الذي يرافق العشاق ويحيط بهم كما يحيط الرحم بالجنين ويحتويه ويغذيه, يغدو الخيال منبعاً أساسياً يرفد اللحظات بدفق المشاعر ودفء المواقف التي نشتهي أن تغدو واقعاً, فلكل عاشق عالمه الخاص من الخيال فيه يبحر وبه يأمل وفي مدار فلكه يضع نجوم أمنياته.

تجلس سارة على الأرجوحة على شرفة منزلها الجميل المحاط بغابات الصنوبر, تدخل أمها تجلس بجانبها تلاعب شعرها الذهبي المنتشر كأشعة الشمس فوق كتفيها, وتهمس في أُذنها ما اسمه أذاً؟

سارة باستحياء: من؟

الأم: هذا الفارس الذي سرقَ قلبك.

سارة: أمي لا يوجد فارس ولا سارق ولا سواه.

الأم: إذاً اسمعي عندي لك خبر رائع, زارتنا بالأمس خالتك, وكما تعلمين فإنّ ابنها قد تخرج من كلية الطب وهو وحيدها, وتريد أن تفرح به, ولن تجد أميرة مثلك كعروس لابنها, فهو شاب مميز, كما أنّي سأكون مطمئنة عليك مع خالتك اذ هي كأمك.

سارة: ومن قال أنّي اريد الزواج.

الأم: هذا عناد لا معنى له بالنهاية ستنتقلين إلى أحضان زوج يرعاكِ, وهذا شاب مثقف ومتعلم ومن "ثوبنا".

سارة: إذاً القصة أنّه من "ثوبنا" هذا هو هدفك.

الأم: سارة أنا اعلم أنَّ هناك شاب دخل حياتك, وأنّك تخفين الأمرعنّا لسبب ما ربما لأنّك تخافين أن نرفضه, وأنا اعرفك جيداً عندما تريدين شيئاً تضحي بكل شيء لأجله, لكن اسمعي يا حبيبتي يقولون بالدارج "يلي بيشلح ثوبه بيبرد" وأنت تعلمين جيداً أنّنا لا نستطيع الزواج إلّا ممن هم من ديننا.

سارة: أمي قرأت دراسة مهمة وأود أن اطلعك عليها تقول الدراسة أنَّ نسب الطلاق لدى الدروز هي اعلى نسبة طلاق لدى كل الطوائف, هل هناك مبرر لهذا الأمر أنا سأشرح لك السبب عندما ترغم الفتاة على الزواج من رجل لا تحبه فقط لأنّه "يلي بيشلح ثوبه بيبرد" تكون النتيجة تدمير سعادتها وحياتها الأسرية والعائلة التي ربتها والمحصلة زواج فاشل.

وتقول الدراسة أنَّ نسبة العنوسة والتأخر بالزواج عند الدروز مرتفعة جداً والسبب برأيك ماذا؟

عندما تحرم الأنثى من الزواج بمن تحبه أو يحرم الشاب من الزواج بمن ينتقيها شريكة حياته وتوضع المحرمات وتبنى السدود المذهبية لأنَّ المجتمع يريد أن يفرض رأيه في هذه الشراكة المفترض أنّها اصلاً بين قلبين فقط, تكون النتيجة إحجامهم عن الزواج.

أتعلمين أنَّ نسبة الانتحار لدى الشباب في اوساط الطائفة الدرزية تفوق المعدل العام بنسبة 212% والتقرير رسمي وصادر عن دروز الجولان وفلسطين, والسبب هو نفسه هذا الإجرام حيث يبيح من يسمي نفسه المجتمع أن يمارسه على كلّ من يخالفه بأي شيء حتى لو كان هذا الشيء هو حياتنا الشخصية أو مشاعرنا.

كم سمعنا مراراً لعشرات القصص عن المحاكم المذهبية وما يحاك في دهاليزها من امتهان لحقوق المرأة, كم عين دمعت, وكم قلب كُسر, ومئات الدعاوى عالقة لديها دون جدوى أو صدر بها أحكام جائرة بحق النساء, هل هذا هو المجتمع العادل الذي تريدي أن اضحي لأجله بسعادتي وحياتي كي لا "أبرد".

أليس هو نفسه المجتمع الذي يسحق المرأة تحت ذرائع واهية ثمَّ يطلب إلينا أن نتمسك بعقيدته وسلوك كبرائه, أليس هو نفسه من يَحرم المرأة حين موت المورث من الميراث ويذهب كلُّ المال للذكر أما الانثى وهي أخته أو أمه أو زوجته فلا تحصل إلّا على "غرفة للقطايع" هل هذا هو العدل برأيك؟

ثم إلى أين يدفع هذا المجتمع أبنائه الذين يريدون الزواج من خارجه إلى الهروب عبر الزواج الغير شرعي زواج الهلاك المسمى زواجاً مدنياً أريد زواجاً شرعياً بما سنَّه لله لخلقه مذ خلق سيدنا أدم, عقد طرفه بيد الشريكين وطرفه الأخر بيد الله تعالى, عقد شرعي ينطلق الإنسان فيها من أحكام وقواعد وفقه وضوابط وقيم ومثل عليا, لا زواجاً مدنياً يزيد البدعة حراماً, والجاهل عمى, والأسرة فقدان للبوصلة فلا هم على دين الاب ولا يعرفون دين الام, حيث يتيه الأولاد, وتنسحق الهوية, وتضيع الحقوق, ويعصى الله, وتتفكك العائلة ولا تعرف حقوق المرأة, ولا تربطهم بعدها بالسكينة رابطة ولا بالمنطق مستند.

أمي إنَّ الزواج هو رابط شرعي مقدس بين روحين قبل أن يكون اتحاد جسدين في طريق يبدأ هنا وينتهي بالجنة إن شاء الله.

الزواج هو ذلك السر الإلهي الذي يسكب قلباً اكسيره في قلبك فيجعلك تفرح لفرحه وتدمع لحزنه, وتقاسمه الآمال والآلام, هو ذاك الأمل الذي ترنوه النفوس في مستقبل يتكلل بغروسٍ هم أطفال يحملون حلمنا قبل أن يحملوا اسمنا, ويداوون بأناملهم الصغيرة ما تهشم من حُطام قلوبنا مع قساوة الأيام, ويرسمون بسمة حيث يحلون وحيث يرتحلون.

الزواج هو شخص يقرأ عيوني ويجيب كلامي من دون أن أتكلم, يعرف نجواي ويلبي رغباتي من دون أن اطلب, يبحث في قلبه عما يسعد قلبي, ويسكب من شموع نفسه ما يجعل نفسي متقدة دوماً.

هو كل ما نملك, وأغلى ما نملك, هو حلم لطالما حلمت به كلّ فتاة أن ترتدي ذاك الفستان الأبيض, ليأتي فارسها فتضع يدها بين يديها ليحملها على صهوة جواده إلى آخر مكان في الأرض.

الزواج ليس صفقة نُبرمها على حساب سعادتنا, لنُرضي مجتمعاً وأناساً لم يهتموا يوماً لأمرنا.

وليس هو عملية تكاذب اجتماعي نسعى من خلاله لكسب رضى الحسّاد والنقّاد.

وليس هو صنم نذبح عنده مشاعرنا وأحاسيسنا إرضاء لكهنة المعبد الذين يباركون أو لا يباركون هذا الزواج, يترحمون أو لا يترحمون على هذا الميت.

أمي إنَّ الله تعالى جلَّ في علاه لم يرسل تفويضاً لكهنة المعبد ليحددوا, مصير الناس ومآلهم, ويصنفوا الناس جاهلاً وعالماً, صالحاً وطالحاً, مؤمن نرحمه أو مرتد لا نرحمه.

أننا لن نمد أنفسنا جسوراً ليعبر عليها الناس إرضاء لغرورهم.

أتظنين حقاً أنَّ أحداً ينجو من انتقاد الناس وأذاهم, أتعتقدين أنّه يوماً عبر التاريخ توقفت الغيبة والنميمة في الأرض.

اقرأي سيرة الأنبياء وهم صفوة الخلق, هل نجا الأنبياء رغم عظمة اخلاقهم من اذى ألسنة الناس؟

احقاً هناك عاقل فوق الكوكب يظن أنّه ينجو من انتقاد الناس مهما فعل؟

وبالخلاصة إن أُقفِلَ باب بيتنا الزوجي والسعادة تملىء قلبي وقلب زوجي فما يضيرنا لو كلّ الأرض انتقدتنا, وإن أُقفل باب بيتنا على رجل أبغضه واحيا الضنك بقربه فماذا يفيدني ثناء الناس علينا.

لطالما كانت سارة موضع اعجاب كلّ من التقى بها, تستشعر أنَّ الصواب يجري على لسانها, تحسُّ بصلابة منطقها وقوة حجتها ولطف معشرها أنها تأسر القلوب.

كانت والدتها تعلم تماماً أنّ لدى سارة الجواب الكافي والتعليل الوافي لما تفكر فيه فهي لطالما كانت هكذا صاحبة عقل راجح, وتقاتل للنهاية في سبيل ما تؤمن به.

وها هي اليوم أمام تحدٍ جديد لقد اضافت شخصية أحمد لشخصيتها الكثير من العنفوان

إمتزج كبريائها بشموخه, وثقافتها برجاحة عقله, تشعر أنّها في معركة ميدانها هدم الأصنام التي عبدها الناس ألف عام تحت اسم العادات والتقاليد, تطلب البرهان فلا تجده, وتسأل عن الدليل فلا تحصل عليه, وكلّ من حولها مُعمى عليه ببغاوات تردد الأقوال من دون سند تتهاوى الرموز أمام عينيها الواحد تلو الآخر, وكلما استفسرت ممن يدّعون الفهم للدين أو الالتزام به يأتي الجواب, هكذا تربينا, هذا ديننا, نحن مقصرون, كذاك الذين يعبدون الأصنام كذا يقولون, ويأبى العقل إلّا أن يقوده الدليل ليستوطن مساحة الاقتناع.

-أهٍ كيف فتح الحب ثقباً في قلبها تسلل منه النور لعقلها واضاء مساحات واسعة من ظلام الخرافة التي كانت تحياها.

ماذا أفعل؟ تخاطب نفسها, إنَّ كل ما اريده أن احصل على إجابات منطقية وعقلية مدعمة بالبرهان عن ديني, هل هذا حرام؟

تفتح الكتب, تقرأ سطور رسائل الحكمة, تقلّب صفحات البحث والباحثين في العقيدة ترى كلاماً خطيراً ومثيراً للقلق, تريد أن تعرف والكل ممن حولها يتبع معها إمّا التقية وإمّا الجهل.

كيف ترضى لهذا الشيء المجهول المسمى العادات أن يقيد هذا الحلم الوردي الذي يزرع الرياحين في حدائق صدرها, كيف تقبل أن يوقف جفاف الأفكار هذا النهر الهادر من دفق المشاعر في دفء الأوردة, كيف تسمح لوهم الأسطورة أن ينتصر على منطق العقل والحب معاً.

نعم لا زال هناك شيء من الشك داخلها فقد ربت ونشأت داخل جدران هذه الطائفة ولا شك أنَّ الانسان يألفُ أهله, والناس الذي عاش بينهم, ربما هناك شيء لا تعرفه تخاطب نفسها ربما إذا التقت الشيخ أمين سيضيء لها جوانب غامضة لم تدركها, ربما المشايخ المتعمقين لديهم مقاربة أخرى لم نطلع عليها.

تأخذها الأحلام بعيداً هل يبارك الشيخ أمين زواجها من احمد ويقنع والدها على اعتبار أنّنا كلنا مسلمون تبتسم بداخلها لتنتبه على صوت والدتها.

سارة أين شردتي؟

سارة: أمي اخبرتك أنّي لا أريد الزواج من ابن خالتي, اعتذري منها بطريقتك عن الأمر.

مساءً

سارة: والدي ماذا حصل بموعدنا مع الشيخ العلّامة؟

الوالد: أراكِ متحمسة للأمر, وهذا يعجبني فيك, لطالما كنتِ منذ نعومة أظفارك إن اردتِ شيئاً تسعين إليه بإصرار كبير.

سارة: أَتعلمُ شعور الأعمى الذي التقطت عيناه نور الشمس للمرة الأولى فرآى بنورها الأشياء كيف تكون, أتعلم خفقان قلبه حين تتحول الأصوات التي سمعها طوال حياته إلى أشكال يراها, هذا بالضبط شعوري.

لقد تجاوزت العشرين لطالما وددت أن أتكلم كما يتكلم زملائي عن دينهم وعقيدتهم بإعجاب وحماس, أن أكون مثلهم أن ادافع عما اعتقده حقاً لا عمّا أسمعه من الناس.

أبي ليست رؤية العين كسماع الأذن, قيل بين الحق والباطل أربعة أصابع الحق أن تقول رأيت والباطل أن تقول سمعت.

أريد أن أرى نور الحقيقة من عقل منصف يصدح بالموضوعية ويحارب الأسطورة.

أريد أن أجيب ابنائي غداً في ليال الشتاء الطويلة ونحن حول الموقدة عن اسئلتهم عن دينهم.

الوالد: سيكون اجتماعنا به يوم الجمعة المقبل.

سارة تطير فرحاً, تَطبعُ قبلةً على خدِ والدها, أنت أبٌ رائع, تطير إلى غرفتها لتخبر شقيق الروح, بخبر لقائه بوالدها والشيخ أمين في آنٍ معاً.

لقد بدأت بشكل صحيح هي تعلم أنَّ والدها رجل عاقل وحكيم برغم كلّ التزامه الديني إلّا أنّه يغلّب المنطق السوي الذي يراه على العاطفة, وهو منصف دوماً ويقف إلى جانب الحق.

-حقيقة لا يدركها الكثير من الناس أنّه عندما تحب الأنثى تتفتح أكمام الورد في لحظات عمرها, تغدو السعادة أسيرتها وتغدو هي أسيرة الخيال, يرنو القمر ويدنو من شباك نافذتها يصبح لليل معنى آخر مزيج من سكون الحب مشفوعاً بأعراسٍ من الأنغام, يطير القلب عصفوراً على اغصان ذكراها.

الحب يجعل الأنثى تبني مملكتها الخاصة, مملكة لها فيها عرش وقلاع وحرس وجواري وأمير واحد هو فارسها.

تحلم بذلك اليوم الذي تسير به بخطى متئدة بفستانها الأبيض وباقة ورد, وكلّ العيون ترنوها وتغبطها. ويأتي ذلك المساء لتضع كفيها في كف من تحب ويحملها على أرجوحة القمر في بحر بلا شطآن.

فكيف إن كان هذا الفارس شخص كأحمد قد حباه الله جمال الوجه والعقل, وقوة النطق والمنطق, والرقة في غير ضعف والقوة قي غير عنف, ولين الجانب وسداد القول.

تتفلت اللحظات من بين يديها كطفل يحمل الساعات في كفيه مثل الماء تيّاهاً يقطّر منه أيامه تغلق عينيها لتخبأ حلماً في صندوق صدرها وتقفله, تشتهي أن تفتح عينيها لتبصر نفسها بين ذراعي حبيبها, تحلم كثيراً بعائلة بأطفالهما, بلحظات حملها الأولى كيف ستخبره بها وكيف ستكون ردة فعله حين يسمع أنَّه سيصبح أباً, بمنزلهما المشترك بكل زاوية كيف ستبدع فيها وكيف ستترك فيها بصمة وتغرس فيها ذكرى, أين سيمضيان أسابيع زواجهما الأولى, كيف سيمضيان العمر سوياً, كيف سيأتي ليرضيها اذا ما غاضبته يوماً, كيف سيتراشقان الوسائد, وتنام على صدره ليهمس في أذنها قصائد الحب التي لطالما أحب صياغتها, كيف سيسيران على رمال البحر تحت ضوء القمر ليسترجعا ذكريات حبهما كيف ينتقيان أسماء اولادهما ويخططان لهما حياتهما.

إنها لذة فكرية لا تنتهِ, ما أن تبدأ الفكرة حتى ترفدها فكرة أخرى ليحملها التفكر إلى بحر من الاحاسيس لا شطآن له.

-تُمسك الهاتف تطلب الرقم الذي تحفظه بالقلب لا بالعين, يأتيها الصوت الهادىء من بعيد أهلاً بأميرتي: أنتِ النساءُ جميعاً ما من إمرأة ... أحببتُ بعدكِ إلّا خِلتُها كذبا

سارة ضاحكة: إذاً ستحب بعدي نساء.

أحمد يرد سريعاً: لست أنتِ التي تتكررين.. فليس لسارة اثنتان.

أنتِ إمرأة لا بل أكثر, أنتِ قوافل شهد سكر, أنتِ عبلة يا آسِرَةَ قلب الفارس وأنا عنتر, أنتِ الحرف وأنا الدفتر, أبقى أحبك أكثر أكثر, حتى يغوص اللون الأزرق في عينيه, حتى تذوبَ رضابُ الليل وتصبح سكر, أبقى احبك أكثر أكثر, حبك يكبر وأنا اكبر حتى غدونا كلانا أكبر من أن نكبر.

سارة: الله الله, ويسألونني لماذا أهيم فيك, الأن عرفت شعور ليلى العامرية عندما هامت بقيس, وما عانته بثينة عندما عشقت جميل, وخفقان قلب عزة عندما تمرُّ سيرة كثير, ولهفة عبلة لرؤية ظل عنتر, لكن كلُّ هذا سيكون قليلاً أمام قصة حب أحمد وسارة.

أحمد يضحك: هاتِ يا فراشة صدري ما لديك من اخبار.

سارة: قبل لنتفق على المكافأة.

أحمد: قصيدة حب على شاطئ البحر مع عشاء شهي.

سارة: ضاحكة اذاً اخبرك عندما نلتقي.

أحمد: كلانا رابح أيتها الحسناء.

- للعيون لغة ساحرة, لغة من دون مفردات ولا أصوات, لغة خاصة جداً فقط يتكلمها طرفي الحب ولا تجوز لثالث, تلتقي الأحداق بالأحداق, وتبحر في بحر بلا شطآن من أشواق وفي استغراق لحظات من النجوى تبث الخبر ينساب على شفتيها كالسكر, تخبر أحمد أنَّ الموعد قد حان ليبدؤوا خطواتهم نحو بناء أسرة مميزة, وأنَّ الجمعة سيكون موعدهما, تلمع عيني أحمد هي تعلم تماماً ماذا تعني تلك النظرة الواثقة, هذا هو الباب الذي لطالما أنتظر أن يُفتح له ليكون برهاناً على صدق دعواه ويقين أيمانه بالحوار والدليل.

قال: اسمعيني بدقة سارة, أنا أعلم أنَّك تخوضين معركة كبيرة, وارى في عينيك ما تحملينه من قلق, وأعرف تماماً الهواجس التي تعتريك وأنتِ تُقدمين على خطوة قد يكون ثمنها باهظاً, قد تخسرين فيها الأهل والعائلة والعشيرة, ولكن ماذا لو كان الأهل والعائلة والعشيرة على خطأ؟ وهل يعقل أن يجتمع الشيء وضده في آن معاً؟ ثم من الذي يسير لنا حياتنا ويَخُط لنا أقدارنا هل العادات والعقول المثقلة بالوهم أم الله تبارك وتعالى, فمن يتوجب علينا أن نرضي اذاً الله أم سواه؟

كان هناك رجالٌ سواي كثر, وسواكِ نساءٌ كثرٌ كان. ولكنَّ الله تعالى قدّر أن يؤلّف بين قلبينا, وهو قدر عظيم من رب حكيم, ربما لنفتح الطريق لمن سيأتي بعدنا ونعلن أنَّ رابطة الحب رابطة مقدسة إن توافقت مع الشرع, وإننا نقبل بالحق إن صدر عن الشرع, ولا نقبل بالباطل وإن صدر عن الأهل.

نحن لم نفعل حراماً بحبنا فقلوبنا لا نملك أن نوجّه دفة شراعها كما نريد, لكننا أوقفنا مشروع زواجنا على أن ننظر موقف العقيدة منه, وها نحن نلتقي بأناسٍ يومياً ونسألهم ولا أحد يجيب, ونبحث يومياً بالكتب ونستخلص النتائج ونناقش التفاصيل ولا دليل يذكر.

لقد وصف والدك هذا الشيخ بالعالم وأنّه بحر من العلوم الشرعية وهذا أمر حسن, وقد ارتضاه والدك حكماً وفصلاً, وانتدبه ليشرح لك ما خفي عليك من أمور دينك. وأريد منك أمراً أن تحكّمي عقلك لا عواطفك فيما ستسمعينه بهذا اللقاء فالإنسان مفطورعلى محبة أهله ومن تربى بينهم, وأن تكوني منصفة كما عهدتك, لأنَّ رائدنا الحق الذي ما أضلَّ أحداً قط وحينها فقط نستطيع أن نتخذ القرار.

اتفقنا – اتفقنا.

-في بدلة رسمية تشع منها الأناقة مع فائض الرجولة يقود أحمد سيارته إلى منزل أهل سارة مقلباً أفكاره, مبتسماً بين الحين والآخر, لا ينسَ أن يصطحب معه باقة ورد الأوركيدي التي تحبه سارة, يطرق الباب فتتداخل طرقاته مع طرقات قلب سارة, يفتح الوالد بابتسامة هادئة يصافح أحمد بحماس , وتقابله الوالدة بابتسامة باردة تُظهر مكنونات نفسها من قلقها من خيارات ابنتها, وتطلُّ سارة بثوبها الأسود الطويل الذي يُحاكي التفاف الليل على جِيد البيلسان, تأخذُ منه الورد بابتسامة تفترّعنُّ ثغرها الوردي, اختلاط العشق بالقلق يولد شعوراً فريداً لا يُعبّر عنه بالكلام, تفتح البطاقة التي بالباقة تجد مكتوب فيها: " إلى ثاني الروح , وثالث العينين , أنتِ لي , وستبقين لي "

ينطلق الجميع للوصول إلى الموعد المحدد وفي الطريق يتجاذبان أطراف الحديث, في مياسم وجه الوالد تقرأ سارة إعجابه بمنطق هذا الشاب المثقف حديث السن.

يصلون إلى منزل الشيخ أمين يستقبلهم مساعد الشيخ بالباب مرحباً بالدكتور ومن معه ويدخلون غرفة استقبال كبيرة في صدرها صورة لمجموعة من المشايخ, وفي يسار الغرفة صورة لفارس يحمل سيفاً, وبجانبها لوحة كتب عليها (اذا ضاق عليك الزمان فاصرخ يا سيدي سلمان) وبالوسط حيث يجلس الشيخ متكئاً بلحية بيضاء طويلة عليه آثار جهد السنين, ولفة مكولسة يستقبل الحاضرين بابتسامة كبيرة.

الشيخ: مرحباً بالدكتور وائل منذ مدة لم نراك.

الدكتور: مرحباً بالشيخ الجليل سعيد بلقائك بخير, كيف صحتك؟

الشيخ: نشكر الباري سبحانه.

الدكتور: هذه ابنتي سارة.

الشيخ: ما شاء المولى لقد أصبحت عروس.

الدكتور: نعم الزمن يمضي سريعاً, وهي لديها بعض الأسئلة وأحببنا أن نغترف من معين بحرك الزاخر.

الشيخ: نحنا مقصرين الباري يغفر لنا.

في الغرفة طاولة كبيرة ملئت بشتى أصناف الضيافة وهي ما اشتملت عليه عادات الدروز وتاريخهم من الكرم الشديد, والشجاعة والإباء, وبعد المسامرة والاطمئنان عن الأحوال

الشيخ: نعود لابنتنا سارة تفضلي ما لديك؟

سارة: سمعت من والدي ومن الناس عنك الكثير من علم وتواضع وحلم, والحقيقة احيا بصراع منذ فترة وأريد يداً تنقذني منه, وتقودني بأمان إلى الطريق الصحيح.

الشيخ بابتسامة: اذاً لقد وصلتِ.

سارة: إلى أي دين تنتمي طائفتنا؟

الشيخ: بالتأكيد الدروز فئة من فئات المسلمين, وطائفة من طوائفهم المتعددة.

سارة: وهل للمسلمين وطوائفهم رب غير الله تعالى وكتاب غير القرآن؟

الشيخ: أكيد الله ربنا والقرآن كتاب الله أنزل للإسلام وللناس كافة.

سارة: إذا كان الله ربنا, والقرآن كتابنا كوننا مسلمين, فماذا يعني اتخاذنا من كتاب الحكمة دستور لنا نحلُّ حلاله ونحرّم حرامه, ونخفيه عن أعين الناس أجمعين ومنهم أبناء جلدتنا؟

الشيخ: رسائل الحكمة هي ملخص الديانات السابقة والفلسفات الغابرة, وعصارة الكتب السماوية من توراة وإنجيل وقرآن.

سارة: ممتاز وهل أمرنا الله تعالى أن نأخذ من الديانات السابقة الوثنية ومن الفلسفات الغابرة المتناقضة دستوراً؟ وهل يرضى الله أن نأخذ من ديانات سماوية سابقة والنبي نفسه يقول " لو كان موسى حياً ما وسعه إلّا اتباعي"؟ ألم يخبرنا ربنا أنَّ الكتب السماوية من توراة وإنجيل قد حرّفت حين يقول الله " يحرفون الكلم عن مواضعه " فكيف نأخذ ديننا من كتب محرّفة تقول عن الله أنه صُلب وضُربَ وأُهين؟

الشيخ يتفاجىء مما سمع, وقبل أن يجد الجواب تكمل سارة.

-وهل الله سبحانه عاجز حتى يرسل لنا كتاباً ثم يطلب إلينا تلخيصه, أليس هذا نقص بكمال الله وعلمه وحكمه, لماذا لم ينزِّل مختصراً منذ البدء, ثم كيف يأتي كتاب من الله ثم يؤلف كتاب من البشر يناقضه بل يهاجمه وينتقص منه؟

الشيخ : معاذ الله من هذا القول.

سارة: ألم يأمرنا ربنا في كتابه بالصلاة خمس مرات في اليوم والليلة, ألم يأمر بإقامة الجمعة .وصوم رمضان ,ألم يأمر بحج بيته, وايتاء الزكاة وفق نصابها الشرعي, ألم يأمر بتعليم العلم الشرعي, ودفن الميت في الأرض, ألم يأمر بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, فأين نحن من هذا كله ؟

الشيخ: أولاً بموضوع الصلاة لقد أمر بالصلاة ولكنها أُسقطت عنّا, وكذلك الصوم أُسقط عنّا.

سارة: لماذا أُسقطت عنّا؟

الشيخ: قصة قديمة حيث أنّه في معركة تسمى "الخندق" اقترح سيدي سلمان الفارسي صلى الله عليه بحفر خندق حول المدينة, فأُسقطت تبعاً لذلك عنه الصلاة وعنّا معه.
سارة: وهل ملايين الدروز اليوم من أطفال ونساء وعجائز كانوا يحفرون الخندق لتسقط عنهم الصلاة؟

الشيخ يتفاجىء بالسؤال ولا يجد جواباً

سارة: وهل يستطيع شخص فوق سطح الكوكب أن يثبت نسبه الى سلمان الفارسي رضي الله عنه, وهل تعلم أنَّ سلمان الفارسي لم يكن له أولاد ذكور أصلاً ليحملوا اسمه وتستمر ذريته من بعده.

وهل أنت أيها الشيخ خير من سلمان الفارسي رضي الله عنه؟

الشيخ: معاذ الله بل أنا احقر من غبار على قدمه.

سارة: هل تعلم أنَّ سلمان الفارسي كان يقوم الليل يصلي ويصوم النهار إلى أن توفاه الله.

الشيخ: نعم كان عابداً زاهداً.

سارة: طيب إن كان سلمان الفارسي لم يُسقِط الصلاة عن نفسه فكيف تسقط عنا؟

ثم إن كان الله تعالى هو الذي فرضها كما أقررت أنت قبل قليل, فكيف يأتي شخص كائناً من كان من عباد الله ويسقطها, أليس الذي أصدر الأمر هو وحده من يلغيه أو يستثني, فأين نجد الاستثناء من الله لنا؟

يسود صمت ثقيل بالغرفة ينظر الشيخ ومساعده بوجه بعضهم البعض, كأنّما الموت يخيم بأجنحته على المكان ,لطالما تعودوا أن يخبروا الناس بما يشاؤون فتنحني لهم الرؤوس منصاعة, هذه المرة الأولى منذ عقود من الزمن يأتي أحدهم ليضع عُصارة فكر وازن بين أيديهم, ويفاجئهم بهذه الأسئلة لقد كانت أجوبة بالحقيقة وليست اسئلة.

وفي هذه اللحظات الثقيلة يدخل الشيخ "سامي" وهو من أعلام المثقفين لدى الطائفة يتبادلون التحايا, مرحباً بالشيخ سامي, مرحبا بشيخي الفاضل, يشعر بأنَّ الجو به أنفاس ثقيلة يبتسم الشيخ "أمين" ببرود والانزعاج واضح بالمُحيّا, يقول الشيخ أمين: على سيرة الصلاة يُقال: إذا حضر الماء بَطَل التيمم, هذا الشيخ سامي معكم يُكمل ويجيبكم على اسئلتكم.

يدرك الشيخ سامي بدهائه أنَّ الشيخ أمين محرجٌ من الإجابة.

الشيخ سامي: نتشرف بداية بالأفاضل

الدكتور: أنا الدكتور وائل وهذه ابنتي سارة طالبة علم نفس ومنطق وهذا صديق العائلة أحمد.

الشيخ سامي: تلمع عينيه من أين أحمد؟

الدكتور: إنّه من السنة.

ينتفض الشيخ أمين من مكانه, كالطائر بين يدي من يذبحه, لا لا يا دكتور ظننتك تعرف الأصول والمحظور.

يبتسم أحمد: ألم تقل يا شيخ الآن أنّكم مسلمون, وأنا كذلك مسلم فأين خالف الدكتور الأصول؟

الشيخ سامي: أهلاً بك يا أحمد, لدينا تقاليد مرعية الإجراء منذ مئات السنين بعدم مذاكرة أمور المذهب مع الغير.

أحمد: ومن تقصد بالغير أيها الشيخ الفاضل المسلمين أم الكفار؟

الشيخ سامي: كل ما سوى الدروز اسمهم غير.

احمد: اذاً اتفقنا أنّي من هؤلاء الغير وأنا راضٍ, لكن دعني اسألك هل تعتقد أنّكم على حق وأنَّ دينكم هو من اهتدى للصواب من بين باقي الملل والطوائف؟

الشيخ سامي: لو لم اعتقد ذلك لكفرت, ولم أكن لولا اعتقادي استلمت ديني ولبست الزي.

أحمد: حسناً إن كان دينك هو الدين الصحيح, وأنتم الفرقة الناجية اذاً لماذا تخفون هذا الدين عن " الغير" ومنهم أنا والبشرية قاطبة, أليس هذا رفض للخير, وكره للإنسانية, ورغبة في إبقاء الضلالة في الأرض, وسعادة بأن يكون مصير الناس جميعاً إلى النار حسب معتقدكم؟ وهل يستوي هذا الكره مع ما تسميه الدين الصحيح و"الفرقة الناجية".

الشيخ سامي: هذا صحيح لو لم نكتب المواثيق على أنفسنا.

أحمد: وهل هذه المواثيق هي عبارة عن رقع خطية دوّن فيها كلٌّ شخص اسمه وبايع فيها على طاعة الحاكم بأمر الله؟

الشيخ سامي: نعم كانت كذلك بالضبط في عهد مولانا الحاكم الباري المتجسد جلَّ ذكره وصفيّه حمزة بن علي صلوات الباري عليه.

أحمد: هل لنا أن نقرأ هذه المواثيق ونقرأ اسمائكم ونرى تواقيعكم عليها ونشهد على ماذا بايعتم؟ وهل قرأتها أنت يوماً أيها الشيخ أو رأيتها؟ وهل أحد فوق سطح الأرض قرأها او رآها؟

الشيخ سامي: لم اقرأها ولقد حفظها مولانا جلَّ ذكره في الاهرامات ولهذا بُنيت.

أحمد: اذاً مدلول كلامك أنَّ كلَّ الدروز الموجودين الآن كتبوا الميثاق على أنفسهم وحتى الذين لم يولدوا والذين سيولدون إلى قيام الساعة وبايعوا الحاكم على السمع والطاعة ووقعوا الميثاق على نفسهم صحيح؟

الشيخ سامي: كلُّ من هو موحد كتب الميثاق في التجلي الأخير لمولانا الحاكم على طاعته والزم نفسه به, وعليه سوف يحاسب.

أحمد: اذاً هذا يقتضي أنّ كل الدروز اليوم ومن سيأتي قد بايعوا الحاكم بأمر الله؟

الشيخ سامي: لا شك أنَّ كلَّ الأنفس الموحدة قد بايعت مولانا الحاكم في تجلّيه الأخير.

أحمد: لكن سؤالي كم هم عدد الأشخاص الذين بايعوا الحاكم الفاطمي بدعوته الجديدة؟

الشيخ سامي: يسكت

أحمد: أنا اجيبك كان الحاكم يّمرُّ بنفسه كلَّ يوم على الإمام حمزة بن علي وهو في جامع "القُرافة " في شرق القاهرة, شمالي جبل المقطم, ويسأله عن عدد الذين استجابوا لدعوته ويكثر من مشورته, فعلى هذه الصورة ظهر مذهب الدروز واشتهر أمره بين الأنام وقد بلغت "جريدته " أي عدد المواثيق التي كتبت ستة عشر الف ميثاق.

وأنت تعلم يا شيخ أنَّه بعد مقتل الحاكم على يد أخته ست الملك أو اختفائه كما تحب أن تعتقد, واختفاء حدود دعوته عَمِل ابنه علي الظاهر على البطش وقتل اتباع الدعوى الحاكمية الجديدة وهذا ما حدا بحدود الدعوى للاختفاء, والسؤال من أين اتى عدد عشرات الملايين الذي تقول عنهم أنّهم كتبوا الميثاق ؟

الشيخ سامي: لأنها كُتبت في غير زمن الحاكم

أحمد: لكنّك أقررت قبل قليل أنّها كتبت في زمن الحاكم ثم كيف تكون كتبت في غير زمانه وكاتبها الإمام حمزة بن علي نفسه وهي التي تختم بعبارة " كتبت في شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا من سنين عبد مولانا جل ذكره ومملوكه حمزة ابن علي هادي المستجيبين المنتقم من المشركين المرتدين بسيف مولانا جلَّ ذكره"

فكاتبها كما يصرح بنفسه هو حمزة, وكتبت بسنة من سنين الحاكم الفاطمي كما يقول جلَّ ذكره.

الشيخ سامي: بانزعاج لا اعلم.

أحمد: لنَعُد إلى الأصل اذاً ما هو هذا الميثاق الذي تعتبره سراً مقدساً تُلزم به نفسك منذ عصور سحيقة, وتُقنع من حولك أنّك مرتبط به برابط إلهي مقدس, وتعتبره مدخلاً للعقيدة وسر يميزك عن باقي المخلوقين؟ هل اخبرتنا به تكرماً؟

الشيخ سامي: لا استطيع البوح بأمر مقدس في عقيدتي وأظنُّ أنَّك تحترم خصوصيتنا.

أحمد: بالتأكيد أيها الشيخ الفاضل أحترم خصوصيتكم, إن كانت تتعلق بالحياة الشخصية بالعمل, أو العلاقات الأُسرية, لكنَّها لا تكون في دين الله المُنجي للبشرية باعتقادك والدين الوحيد الصحيح فوق الكوكب الذي يقود للسعادة والجنة, أنت تشبه من يملك قارب نجاة ورآى شخصاً يغرق فقال لا استطيع إنقاذه لأن القارب خاص بي وحدي.

الشيخ سامي: والآن ماذا تريد أن تعرف؟

أحمد: أريد أن اعرف كيف اكتب الميثاق على نفسي وانتمي لدين الدروز؟

الشيخ سامي: مستحيل طبعاً لا يدخل دين الدروز إلّا من ولد من أبوين درزيين, ولا يمكن اعتناق الدين الدرزي لأنَّ باب الدعوى أُغلق منذ الف عام.

أحمد: هل برأيكم أنَّ الله تعالى رحيم وعادل؟

الشيخ سامي: بالتأكيد إنَّ الله رحمن رحيم وهو أعدل العادلين ما هذا السؤال الغريب.

احمد: فكيف يكون لهذا الرب الرحيم العادل أن يخلقني على غير الدرزية, ثم يقفل باب الدعوة إليه, ثم يقول لي أنت في النار لأنّك لم تدخل الدعوة؟ فلا هو خلقني على الدرزية ولا هو ترك باب الدعوى مفتوحة لأدخل إليها, ويتوعد بالنار لمن لا يدخلها؟

الشيخ سامي: يسكت كمن سقط من علو لا يجد جواباً.

يتابع أحمد: اعتبر أنّي أو أي شخص, كنت تائهاً فيما مضى واهتديت إلى الصواب وأردت أن اتوب واعتنق الدرزية فماذا افعل؟

وباب الدعوة مقفول امام جميع الأمم والخلائق منذ الف عام علماً أنَّه لم يفتح سوى سبعة عشر عاماً من تاريخ الدعوة التي بدأت عام 1017م إلى تاريخ توقفها عام 1042م, وتوقفت خلالها مرتين لمدة ثماني سنين.

الشيخ سامي: اخبرتك أنَّ اعتناق دين الدروز لا يتم إلّا بالولادة.

أحمد: هذا يناقض قولك أنَّ الله رحمن وعادل, كما أنّه يناقض دين الإسلام الذي تقول أنّك منه والذي يستطيع أي شخص دخوله بمجرد نطق الشهادة وهي كلمات معدودة, وهو يناقض حتى المنطق والعقل الذي تقول بتعظيمه.

الشيخ سامي: رغم هدوئه وبرودة اعصابه تتفلت منه حمحمات تُظهر مدى انزعاجه وإحراجه في هذا النقاش, يستطرد الشيخ ما هو هدفك من هذا الكلام؟

أحمد بهدوء: أيها الشيخ إنَّ على ظهر الكوكب ما يزيد عن مئة ألف دين وطائفة كل واحدة تدعي أنَّها على حق, وأنَّ لها سر مقدس تخفيه عن أعين المخالفين, وأنها الفرقة الوحيدة الناجية في نهاية المطاف, وتعلِّلُ اتباعها بهذه "الأنا" كما قال ابليس (أنا خير منه) وكل فرقة ضآلة تقول (نحن خير من باقي الفرق) من دون عقيدة أو عمل, فقط للانتساب لهذه الفرقة بالولادة, وثم الغريب أنَّ المشترك بينها

أنَّ اكثرها تحاول أن تنسب نفسها تاريخياً لأحد الصالحين, كما يحاول الدروز اقناع اتباعهم أنَّهم ينتسبون للصحابي سلمان الفارسي حيث أنَّ الرابط الوحيد الحقيقي بالموضوع هو أنَّ مؤسس الدين هو حمزة بن علي "فارسي" فأراد أن يربط الأمر بقومه الفرس, فاختار الصحابي المشهور سلمان الذي أصله فارسي, علماً أنَّه تَرَكَ دين الفرس وارضهم واعتنق الإسلام حباً وكرامة رحمه الله, اعتنق الإسلام الذي تتبرأون منه.

ثمَّ إنَّ محاولة ربط الدروز جميعاً بسلمان الفارسي هو ضرب من خيال أولاً: لأنَّه لم يثبت نسب أي درزي على وجه الأرض لسلمان الفارسي, ولم تُعرف له ذرية ذكور بعد موته عنوة أن تُثبت أنَّ كلَّ دروز الأرض يتنسبون إليه نسلاً وسلالة.

وثانياً: إنَّ ربي يقول (كلُّ نفسٍ بما كسبت رهينة) فلو كنت أيها الشيخ ابن سلمان الفارسي شخصياً لا من سلالته لن ينفعك هذا القرب ولا هذه الأبوة يوم القيامة لأنَّك ستدخل القبر وحدك, وتبعث وحدك, وتحاسب وحدك, وقد كان نوحاً نبياً عظيماً وابنه كان كافراً, وقد كان إبراهيم نبياً عظيماً من أولي العزم ووالده كان كافراً, فلم تنفعهما قرابتهما اللصيقة منهما, وهما أنبياء فما بالك بمن هو دونهما.

ثم إنّه لا يوجد دين أنزل للبشرية وهو دين حق إلّا أظهر شعائره, وبيّن كتابه السماوي للناس كافة, ودعا البشرية جمعاء لاعتناقه, وجاهر بصدقيته, ولا يوجد بالمقابل قوماً اجتمعوا على ضلالة, إلّا تناجوا أمرهم بينهم, واخفوا كتبهم, وأسرّوا عقيدتهم, وأغلقوا باب الدعوى إلى دينهم ليحافظوا على مراكزهم المعنوية ومكتسباتهم المادية.

في نشوة فكرية تغرق سارة في اعجابها بقوة منطق أحمد وسداد رميه, وقلق واضطراب محاوريه, تلاحظ علامات الاندهاش والتأثر في تعابير والدها, يقطع دفق أفكارها صوت الشيخ سامي غاضباً: ليس كلُّ ما يعرف يقال , وعلى كل الخطأ ليس خطأك, في إشارة ضمنية إلى الدكتور وائل الذي اتى بأحد "أهل الشرائع" إلى منزل الشيخ.

بسرعة يلتقط أحمد الإشارة فيبادره: قصدت أنَّ هناك أمور من الشرع لا تستطيع البوح بها من مبدأ التقية مع أهل الشرائع؟

الشيخ سامي: التقية ديني ودين آبائي كما يقول الإمام جعفر الصادق.

أحمد: ائذن لي يا شيخ سامي اولاً إنَّ القول أنَّ تسعة اعشار الدين التقية, وأنَّ التقية ديني ودين آبائي هو قول مكذوب وحديث نسب زوراً إلى الامام جعفر الصادق ولا سند بالكتب الصحيحة له, وحاشاه أن يأمر بالكذب وهو الصادق الطاهر سليل بيت النبوة, وهم الذين دفعوا دمائهم لقول كلمة الحق, وهو على منهاج النبوة الذي علّمَ فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ,أنَّ المؤمن لا يكذب.

ثم اشرح لي أليست أول قاعدة من قواعد دينك وهي السبع خصال توحيدية اسمها " صدق اللسان".

الشيخ سامي: صحيح وهي الأعظم لدينا.

احمد: اذاً كيف يستقيم صدق اللسان وهي القاعدة الأولى مع التقية التي هي كذب اللسان؟

حرّي بالعاقل أن يدقق الفاظه قبل أن يلقيها في مسامع الناس, فالكلمة أسيرة ما دامت في جوفك فإذا نطقت بها غدوت أنت أسيرها إما خيراً بخير وإما شراً بشر, ولا يجدر بالعاقل أن يتكلم ويتبنى كل ما قالوه آبائه وأجداده على أنّها حقائق مسلّم بها, إذ أنَّ عابدي الأحجار والأوثان يظنّون أيضاً أنّهم على حق ولولا ظنّهم هذا ما ثبتوا على معتقدهم, ويرون أنّهم أشرف الأمم وخير الديانات وينقلون من أخبار دينهم ما سمعوه عن آبائهم.

وطالما أنّكم تقدسون العقل فالأجدر بنا أن نعرض أقوالنا وافعالنا وعقائدنا على ميزان العقل إن رفضنا عرضها على ميزان الشرع.

الشيخ سامي: ماذا تقصد؟

أحمد: من المعلوم من الدين بالضرورة أنّ من حرّم شيئاً أحلّه الله تعالى أو أحلّ شيئاً حرّمه الله يكون قد كفر.

الشيخ سامي: صحيح طبعاً هذا الكلام.

أحمد: فالله تعالى قد أباح إعادة المطلقة وانتم حرمتموها, واباح تعدد الزوجات لمن أراد وليس فرضاً وانتم حرمتموه, واباح أنواع الطعام وانتم حرمتم بعضها, وحرّم الوصية لوارث وأنتم احللتموه, وحرم الوصية بأكثر من الثلث وانتم احللتموه, ووزع الانصبة الشرعية للورثة وانتم خالفتموه, وسواها الكثير التي لا يتسع المقام لذكرها ومنها أباح زواج المسلمين بالمسلمات, وأنت تقول أنّكم مسلمين وتحرّمون زواجكم بالمسلمين في الوقت نفسه.

فهنا لا سعة لنا إلّا أن نقول إمّا أن تكونوا غير مسلمين أصلاً لتحريمكم الزواج بالمسلمين.

وإمّا أن تكونوا مسلمين وبتحريمكم ما حلل الله تكونوا كفرتم ولم تعودوا مسلمين, والخيار لك بالإجابة.

وقع كلام أحمد كالصاعقة المدوية في أرضٍ فلاة ارتجت لها الأركان, وعُقدت معها الألسنة وجحظت بها العيون, وغارت منها الأفهام, أتعلم شعورك عندما يسقط ثوبك وسط شارع مزدحم وتركض عارياً مختبئاً عن أعين الناس, يُحس الدكتور وائل وجميع الحاضرين أنّ هذا هو شعور الشيخين, يتذكر مقولة قرأها مرة للكاتب الإنكليزي الساخر برناردشو أنّ "هناك مآساتان في الحب , الأولى أن تربح , والثانية أن تخسر" هذا هو وضع الشيخين الآن فهما لا يستطيعان التقدم بالحوار والإجابة ولا يستطيعان الانسحاب منه, لطالما سمع من العوام عن سعة ثقافة هذين الشخصين وعلمهما وقوة حجتهما, لكنّهما سقطا

في النقاش سقوطاً ذريعاً وبدت عوراتهما الفكرية وكما يقول المثل "أن تسمع بالمعادي خير من أن تراه" ليته لم يزرهما كان أفضل له, لقد ادخلا الشك إلى قلبه وبقوة, كان الشابان مقنعين بالنقاش وأصحاب حجة, وكان الشيخان يلقون عبارات لطالما استعملوها للعوام من دون أي برهان.

لاحظ الدكتور وائل انتفاخ أوداج الشيخين وتغير ملامحهما واحمرار وجوههم فقرر أن يتدخل بحكمة ليحفظ لهما موقعهما.

نظر إلى سارة وأحمد نظرة قرآ منها بفراسة أن توقفا لقد بلغتما هدفكما, وتوجه للشيخ أمين مبتسماً بتكلف شاكراً له حسن الضيافة متمنياً لهما الصحة والسداد.

وهمَّ الجميع بالانصراف عاجله صوت الشيخ أمين:"دكتور يلي بيشلح ثوبه بيبرد" فأتاه الرد من الدكتور سريعاً وصاعقاً:" ولكنّه أفضل ممن يلبس ثوب زور" تفاجىء الجميع بقوة الرد وحزمه.

في طريق عودته غارقاً في أفكاره وهو مندهش من هذين الشابين الصغيرين كيف استطاعا بشعلة حبهما أن ينيرا ظلام ليل قابع منذ ألف عام.

لقد كانا أكثر إقناعاً أقوى حجة أعلى بياناً أشد عقيدة وأرسخ إيماناً.

كيف رضي أن يحيا كل هذه السنين بدون بحث؟ كيف رضي أن يرضخ عقله ويستمع للأساطير؟ يخاطب نفسه, كيف قبل العلم من اشخاص غير متعلمة بالأصل؟ كيف لم يجتهد في معرفة دينه؟ كيف لم يقرأ كتبه الدينية؟ وكيف استطاع شابان أن يسيطرا على النقاش أمام من ابيضت لحاهم وهم يمضون الليالي الطوال يرددون كلاماً نقلوه كابراً عن كابر ليسقطوا في أول امتحان سقوطاً ذريعاً.

لم تكن صدفةً كان قدراً وكلُّ شيء بقدر, كان لا بد من حادث يفتح عينيه ليرى زاوية أخرى من حياة عاشها دون رؤية.

تتفرس سارة في وجه أبيها تستطيع أن تقرأ ما يجول بذهنه هو ذاك الرجل المنصف الذي لطالما عوّدها على أن يقف بجانب الحق وينصاع له,
علمها على النقاش الهادىء الهادف.

أحمد ممازحاً: إنَّ أفضل ما كان في الزيارة طعم "البسكوت والراحة " الذي اكلناه يطلق الجميع ضحكة عالية.

الأب: يأخذ نفساً عميقاً يدعوهم لتناول الغداء, الآن صارحاني كنتما تريدان أن اصل إلى هدف غير معرفة الدين, فما هو؟

تزداد نبضات قلب سارة ويبدو الخجل جليّاً على وجهها, تلتمع عيني أحمد بتلك النظرة تمر ثوان وكأنَّ أحمد ينظم الكلمات يرتبها لتخرج بثوبها القشيب وبكامل أناقتها لتصل معطرة مزينة إلى أذن الدكتور.

قال: عمي أنا زميل سارة في الكلية وقد تعرّفت بحكم الدراسة إليها ولم أكن أرى فيها إلّا تلك القيم الجميلة الراقية التي من الجليّ أنَّ أكفَّ فاضلة تعبت لتغرس فيها تلك الفضائل.

ولأنَّ الأرواح جنود مجندة فقد أَلِفت روحي روحها, وأيقنت أنَّ مسيرة الشراكة التي أرادها الله تعالى لعباده لعمارة الأرض منذ بدء الخليقة تحتاج لشخص يألفه قلبك وترضاه روحك ويقتنع به عقلك, يكون لك نوراً إذا الليل ادلهم, وسنداً إذا الزمان قسى, وأُذناً لبوحٍ يتأجج في صدرك ولا تجرأ أن تُخبر به سواه, وقوساً يدفع سهام أمالك لغدٍ أفضل, يد تمسح دمعة عن خدك حين تحزن, وثغراً يفترُّ عن ضحكة حين يوائم السرور قلبك, ولأنَّ السور الذي كان بيننا هو سور وهمي يشبه سور الصين الذي لم يصدَّ غازياً ولم يحتجب خلفه ائمة ولا سواهم, ولأنّي اردت أن اخاطب العقل وأن تقتنع حضرتك كما سارة أيضاً أنَّ ما بنوا عليه مؤسسي الطائفة عقيدتهم وحلالهم وحرامهم هو مجرد وهم

وأساطير, أو قل هي مصالح ومنافع يتكسبون من ورائها ليحافظوا على عروشهم وقروشهم, لا أقدام لها على ارض الواقع, ولا أصل لها بعالم المنطق والعقل, فلقد أمضينا أنا وسارة شهوراً في دراسة العقيدة وفهمها وتبين لنا منها الأهوال الكثير, وقد أحببت أن تشهد هذا الحوار وقد تبين لك عجز المحاورين وفساد حجتهم, ولو أردتُ أن أفصح عمّا أعرف لكشفت الكثير ولكنّي اكتفيت بهذا القدر من إظهار ضعفهم .

عيني سارة المسمّرتان على شفاه أحمد الناطقة ترقصان كفراشة جاءها الربيع بعد شتاء قارس, قلبها المضطرب يكاد يفرُّ من ضلوعها, يتدفق الدم إلى وجنتيها فيكسبهما لون وردي يزيد من أنوثتها وجمالها, يزيد حيائها من أنوثتها وتتدفق في اعراقها أنهار العفة التي يشتهيها كلُّ رجل في زوجته.

تلتقي عيني أحمد بعيني سارة لتروي قصة حب قديمة نُحتت تفاصيلها على حجارة معبد اغريقي عتيق, هي رسائل مشفرة يفهمها العشاق, ويفكُّ القلب تشفيرها ويفسر معانيها. صمت هنيهةً, ثم يأتي صوت أحمد متابعاً لقد حلمت دوماً أن يكون لي أسرة ثانية أب وأم وأخوة, وبيت ثاني احيا فيه كبيتي, وإنّه ليشرفني أن أنضم إلى أسرتكم كابن لكم واتقدم منكم طالباً يد كريمتكم لتخرج أميرة من بيت أهلها وتدخل ملكة إلى منزل زوجها.

في حكمة الرجل المخضرم الذي زودته السنون بفنون ادراك مآل الأمور وعمق البصيرة ومعرفة عواقب القرارات قبل اتخاذها, يُطرِقُ الوالد رأسه يعصف في ذهنه كلّ ما جرى من تغيّر في شخصية ابنته ريحانته بداية, إلى طردها من أمام باب المجلس لمجريات النقاش معها التي لم يشعر يوماً أنّه أعمى كما حصل يومها, إلى كلام أمها له أنَّ ابنتهما حصل شيء في حياتها تجتهد في اخفائه وأنّه شيء مهم ومصيري المنطق لم تعد الطائفة حاجزاً إذ عجز الكبراء عن تقديم البيان فما بالك بمن دونهم, ولم يعد الدين عائقاً لتلاقي قلبين على ما يريد الله, سقطت الأسطورة أمام الحقيقة, وتلاشى الوهم أمام الواقع, وصمت الجهل أمام العلم, ثم إنَّ إمارات الحب لا يخطئها من كان خبيراً مثله وإنَّ سارة تبدو غارقة في حب هذا الشاب

وهو كذلك وهذا ما دفعها لكل سلوكها السابق, يفكر أنَّ رفضه أو منعه لهذه العلاقة أن تستمر سيؤدي إلى كسر قلب ابنته كما أنّه سيظهر تعصبه وتفضيله لأصنام الأجداد على سعادة الأسرة والأولاد, وقد يصل الأمر إلى ما لا يحمد عقباه, فهي تقاتل للنهاية لأجل ما تريد,اذاً فقد تذهب معه بدون إذن أهلها وعندها يخسر ابنته ولا يكسب المجتمع في الوقت نفسه.

ثم يقول أَلم اذهب بنفسي معهم إلى الشيخ لأقنعهم بصواب رأيي فكانت النتيجة أنّي خرجت مقتنعاً أنَّ الحق والصواب كان ملازماً لهما لا للمشايخ.

فكيف يرفض الحق وهو أبلج كالشمس في كبد السماء, يتوقف هنا يأخذ نفساً ثم يردف: أحمد سارة اسمعاني جيداً, لم تكن الحياة يوماً وردية في أعين الناس محبها ومبغضها غنيها وفقيرها على حد سواء ولن تكون, هذه الدنيا هي دار تحدٍ وارتقاء لا بد أن تصنع من الصخور التي تعترضك أو تُرمى بها قلعة ترتقي على أسوارها إنَّ رضى الناس غاية لا تدرك, لقد مات قبلنا الذين كانوا الناس ينتقدوهم ومات المنتقدون ايضاً, لم يخلُ يوماً مجتمع من الطقوس والتقاليد التي أصبحت أعرافاً والأعراف غدت عادات, والعادات صارت عبادات, وهذا ما نحياه في مجتمعنا كما ترون, إنّي اعلم علم اليقين بعد كلّ هذه السنين أنّ الطريق يقودنا إلى نهايته لا إلى نهايتنا, وأنتم اخترتم الطريق وما رأيت منكم إلّا عقلاً راجحاً, ولساناً بالحق صادحاً وقلباً متدبراً لعواقب الأمور, لأجل ذلك اريد أن أشير إلى أمرٍ جلل, أن تسمع بالمعركة شيء وأن تخوضها شيء أخر, فليست معارك الحروف كمعارك السيوف وليست سهام الكلام كسهام الأنام, وليس هدم الأوثان كهدم البنيان, إنَّ العقائد الفاسدة تتغلغل عميقاً في القلوب وتعشش في الظلمة وتبني هناك اساطيرها, وإنّي أقول إنّكم إن قررتم المضي فهذا خيار عظيم ولكن كونوا مستعدين دوماً, لو كان هدم العقائد أمراً هيناً لما حورب الأنبياء وسفكت دماء الصالحين ونُكّل بالمصلحين, تحتاج ساعة لنشر إشاعة كاذبة أو وهم مريح بين الناس, وتحتاج عمراً لنزعه. وقد بدى واضحاً أنَّ العلم لا يعرف العمر, والحق وإن كان شاباً هو أحق أن يتبع من الباطل ولو كان شيخاً.

وتذكروا دوماً ما يقول لكم الطريق: إنّك تصل إلى نهايتي لا إلى نهايتك. فاختاروا طريقكم بدقة.

لقد اصبح حلم سارة حقيقة, تستحضر تلك الليالي الطوال التي سهرتها يقض مضجعها ويذهب الوسن من عيونها مصير حبهما, تلك الدموع المنهمرات على خدودها مخافة وأدِ هذا الحلم, تلك الهواجس التي عصفت في صدرها فجعلت الراحة حلماً قال لها يوماً إنّه "رجلٌ إن قال فعل" أخبرها أنهما "سينتصران في نهاية المطاف" درّبها وعلّمها وشرح لها العقيدة الدرزية لأيام وليال طوال والشبهات وطريقة الرد عليها, وها هو والدها يفوض القرار لهما وتسمع كلمة الموافقة الضمنية على زواجهما.

أحمد: عمي بقي أمر مهم للغاية, أود معرفة رأيك بما جرى أمامك من النقاش, وتقييمك لهذا اللقاء, وهل ثمة شيء تودُّ أن نناقشه سوياً لنكون على بينة من الأمر؟

الدكتور وائل: ابني الآن وبعد ما يربو على خمسة عقود من حياتي أقول لك لا بد من مراجعة هذه العقيدة من الأساس لنعلم ما خفي أو أُخفي منها لنقبله أو نرفضه, لقد فتحتم عيناي على أشياء عظيمة وخطيرة, ولم أكن لاحترم نفسي وأنا بعد كل هذه السنين جاهل بدين الدروز وأقبل الأسطورة على أنّها حقيقة.

نعم لقد كنتما على حق في كل ما اوردتموه, وسأعمد منذ الآن إلى كتب الحكمة فأقرأها بدقة لأتخذ القرار بها, وسأطلب من كل من هم حولي أن يفعلوا الأمر عينه, الدين الذي يحتكره أناس عن غيرهم ليس بدين, الدين الذي تطوى صحائفه وتخبأ ليس بدين ولن أقبل بعد اليوم أي كلام من أي شيخ إلا بدليل, فالعقل الذي يبحث عن أجود الأشياء وأفضلها في أصغر الأمور الدنيوية حتى لو كانت تتعلق بالطعام والشراب حريٌّ به أن يبحث عن الدين الأفضل أيضاً وهو الذي به يتعلق مصير الدنيا والآخرة, كما أنّي قررت أن لا أزور قبر شيخ أو ولي أو سواه فكلهم ميتون ولا ينفعون ولا يضرون, وقد سئمنا من أخذ اموالنا تحت اسم المزارات وأسقف الأضرحة, ولن أطلب حاجة من ميت ولن اتقرب الى الله تعالى عبر

اشراك غيره معه في السؤال والاستعانة, فعندما كان هؤلاء احياء كان لا حول لهم ولا قوة إلّا بالله فكيف وهم قد أرموا وبليت جثثهم, أن تخطأ فهو أمر مطلوب للتعلم ,لكن أن تصر على خطأك حينها يغدو الخطأ خطيئة منكرة تفوق بفظاعتها الخطأ نفسه

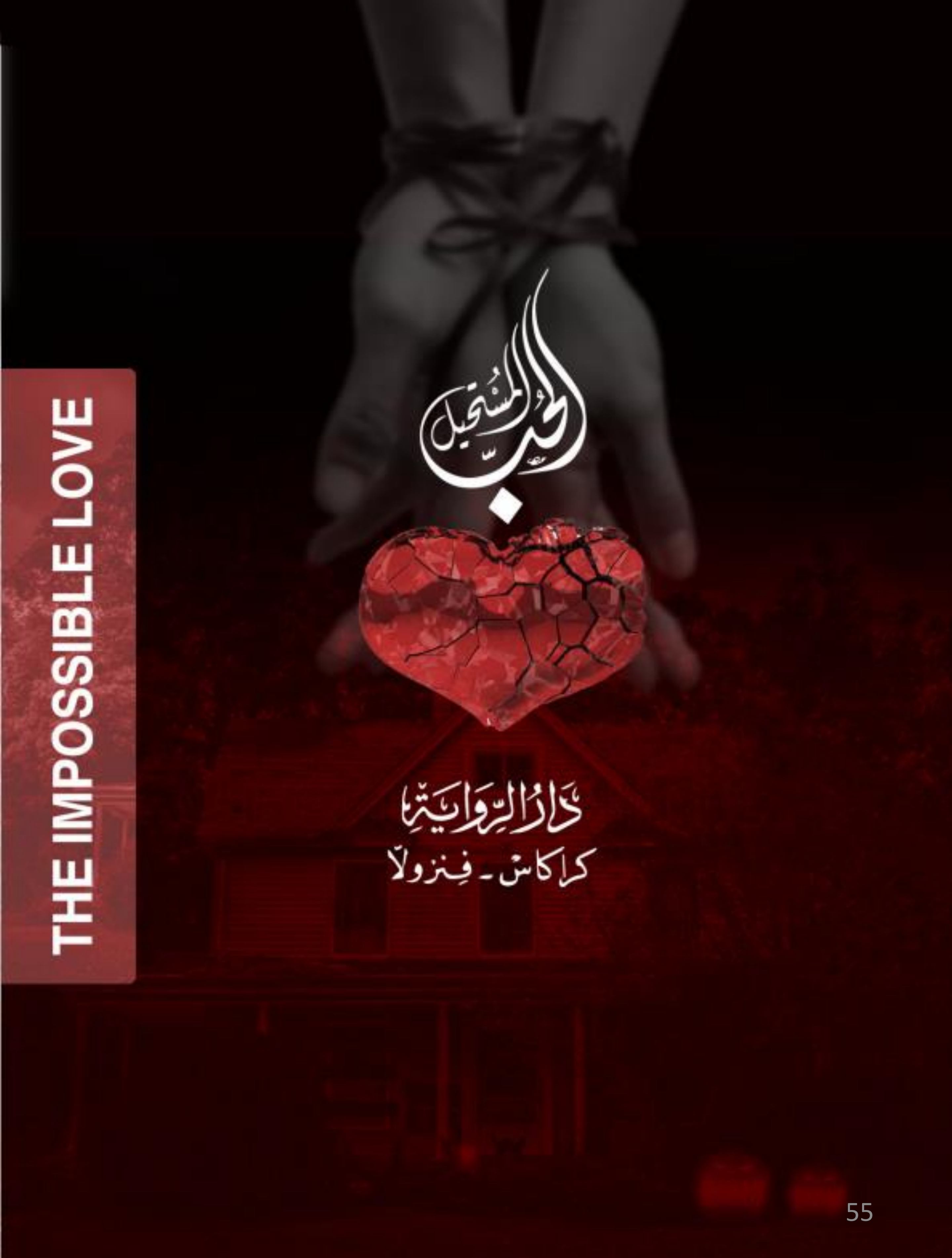
تنفرج أسارير أحمد وسارة مما سمعاه, لا شك أنَّ الدكتور هو شامة بين الرجال وما نال ما نال من علو الكعب وحظوة المنزلة إلّا بعقله الراجح ذاك, فليس كل الناس تختار الحق نبراساً والعقل مرشداً, وقلّة هم من يفاضلون بين مصلحة أسرهم وهنائها والخوف من المجتمع فيختارون أُسرهم, ولا شك أنّه قرار جمع للصواب الشجاعة والشهامة.

-في صالة أنيقة, وتحت ضوء القمر المنسكب كشلالٍ من التحنان, وبين باقات ورود الغاردينيا وعلى أعناق الياسمين وأطباق البيلسان, وفوق بساط أحمر تخرج سارة بفستانها الأبيض المرصع بالنجوم فتبدو كالبدر ليلة تمامه, تضع يدها بيد والدها وسط تصفيق الحضور وتهاليل المدعوين وضحكاتهم, خطوات قليلة ويظهر على الجانب الآخر أحمد كفارس خاض غمار معركة سحيقة وعاد منتصراً بابتسامة تُظهر بشاشة الصدور وما فيها من السرور, يسلّم الوالد ابنته لعريسها, أمانة تنتقل من يد من رباها إلى قلب من سيحميها بقية العمر, لؤلؤة خرجت من محارة بحرها إلى جِيدِ فارس يرعاها, حب ضم قلبين فتعارفا فتآلفا فتكاتفا فحوى النبض الواحد دفق دمائهما, نار عشق لم تخمد جذوتها, وفارس لم يلقِ السلاح وما زال هيّاباً للمعارك, حب هزم أسطورة, ومعصم كسر قيداً, وفجر مزق حُجب الظلام.

كانوا تلامذة حب فغدت قصتهما مدرسة تعلم الجيل الناشئ والمحبين أنَّ من يسعى بصدق صوب هدف يرضي الله تسانده كل الظروف للوصول إليه, وأنَّ وظيفة المصاعب الحقيقة ليس عرقلة تقدمنا بل أن تصنع منّا اشخاصاً أقوياء, فالضعفاء وحدهم هم من يهربون من المواجهة, وأنَّ الإنسان إذا أحب وسار على ما يرضى الله فلا بد له أن يقاتل حتى يحصل على مراده, وأنَّ القيود التي ينتجها الجهل أشدُّ من قيود الزنازين, وأنَّ الحواجز التي تبنيها الطائفة تهدم بضربة واحدة من متعلم

صادق ومن يحيا بالظلام يكره النور, وأنَّ من عاش عبداً للخيال أو المصلحة لن يرضى منك القول المؤيّد بالدليل, تُعلّم الأجيال أنَّ من يقاتل على بيّنة ينتصر, وأنَّ ما بناه الجهل عبر ألف عام يهدمه العلم بساعة واحدة.

الآن وقد شُدّت أشرعة الرحيل, ونفذ زيت سراج منزلنا, ونضب حبر يراعنا, وأغمد الليل فينا سكبات سكونه, واشتاق العاشق للمعشوق, وصوت سارة يأتي من بعيد منتظرة جوار أحمد, أقول لمن يقرأ هذه السطور هذه هي قصتي وأنت لك قصتك التي سترويها يوما لأبنائك, وإنّي لأرجو أن نكون نبراساً يهتدي به من سيأتي بعدنا من الأجيال.


THE IMPOSSIBLE LOVE
الحب المستحيل
دار الرواية
كراكاس - فِنزولا